المدن الساحلية المغربية

سواحل الريف

إيلي دي لا بريموداي

المدن الساحلية المغربية

التجارة، والملاحة، والجغرافيا المقارنة

إيلي دي لا بريموداي

Trans NBE

الفصل الأول

منطقة الريف

الفقرة الأولى

في عهد الرومان، كان الجزء السفلي من نهر مُلوية يشكل الحدود بين موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية[1]. هذه الحدود القديمة، التي اعترف بها الأتراك في السنوات الأخيرة من حكمهم، لا تزال حتى اليوم حدودًا بين الجزائر والمملكة المغربية؛ وقد تم تحديدها سياسيًا بموجب معاهدة 18 مارس 1845.

الفقرة الثانية

بعد عبور مصب نهر ملويّة، باتباع الساحل غرباً، نكتشف أولاً رأس كبدانة الذي ذكره توفينيو[2] والذي يقترن اسمه بقبيلة أمازيغية من المنطقة المجاورة، وهي قبيلة كبدانة. يظهر هذا النتوء الصخري في جميع خرائط الملاحة البحرية في العصر الوسيط، ولكن اسمه لم يُذكر.

على بعد مسافة قصيرة، تشير الخرائط نفسها إلى وجود ملاحات (حقول ملح) دون أي تفاصيل أخرى. تقع هذه البحيرات الطبيعية، التي تبدو واسعة نسبياً، على بعد 18 أو 20 كيلومتراً شرق مليلة وتتصل بالبحر عبر قناة. وشكلت سبخة كَارط[3] على غرار سبختي أرزو ووهران. في الشتاء، تشبه بحيرة كبيرة، ولكنها تجف تحت أشعة شمس الصيف، ويمكن للإبل والحيوانات الأخرى عبورها دون أن تبتل أقدامها. في شهر أكتوبر، عندما تهطل الأمطار الأولى، تغطي الأعشاب أجزاء عديدة من السبخة؛ وتحتها نجد طبقات من الملح المتبلور. بعد هذه البحيرات، ينحرف الساحل ويبدأ في الصعود نحو الشمال. تأتي بعد ذلك مدينة مليلة، التي يذكرها جميع الخرائطيين القدامى: فخريطة فيسكونتي والأطلس الكتالوني لفيرير يذكرها باسم ميليلة، وخريطة مكتبة بينيلي تذكرها باسم شاطئ ميليلة، بينما تذكرها خرائط المسالك الأخرى باسم ميليلة؛ لكن لا أحد منهم يشير إلى النهر الصغير الذي يجري شرق المدينة، وهو نهر الذهب لدى الإسبان. وهو لا يظهر إلا على خريطة باتيستي أغنيسي التي تحمل تاريخًا حديثًا (1524).

كانت مليلة في العصر الوسيط مركزاً تجارياً مهماً. كان أمازيغ المناطق الداخلية يجلبون إليها الصوف والجلود غير المدبوغة والعسل والشمع والفواكه المجففة والمنسوجات، ويحصلون في المقابل من التجار

---

[1] نهر مولوشا (ملوية) هو الآن الحدود بين الأمم، وكان في الماضي الحد الفاصل بين مملكتي بوكوس ويوغرطة (ب. ميلا, 50. 1, 100. 5) — نهر مولوشا يفصل بين موريتانيتين (مسالك أنطونيوس، ص. 12)

[2] Derrotero de las costas de España y de su correspondiente de Africa, 1787.

[3] يذكر مادوز، في الملاحظات الإحصائية المرفقة بخريطة فرانسيسكو كويلو (خريطة الأراضي الأفريقية (1850))، أنها تسمى بحيرة الميناء الجديد، ويضيف أنها تعرضت في عام 1755 لزلزال جرف جزءًا منها.

الأوروبيين على الأقمشة والكتان والأدوات المعدنية والأسلحة. كان العسل، ذو الجودة العالية والوفرة في البلاد لدرجة أن البعض يعتقد أن مليلية استمدت اسمها منه، أهم سلعة تصديرية؛ كان مطلوبًا بشكل خاص من قبل التجار في مالقة وقرطاجنة الذين كانوا يجنون أرباحًا كبيرة من هذا النشاط التجاري. كما كانت مناجم الحديد الموجودة في الجبال المجاورة توفر لسكان مليلية سلعة ثمينة للتجارة الخارجية. في الخليج، إذا صدقنا ليون الأفريقي ومارمول، كان يتم صيد المحار اللؤلؤي.

فيما يتعلق بالتجار الذين كانوا يتاجرون في مليلية، يتحدث البكري عن عادة فريدة من نوعها. يقول: "عندما يصل تاجر أجنبي إلى هذا الميناء، يقوم السكان على الفور بإجراء قرعة، ويقوم الشخص الذي يحالفه الحظ بإدارة العمليات التجارية لصالح هذا التاجر الذي لا يشتري أو يبيع أي شيء دون استشارته. ومنذ ذلك الحين، يكون المضيف ملزماً بالدفاع عن ضيفه ضد أي نوع من المضايقات ويحصل منه على أجر، بالإضافة إلى هدية لتغطية تكاليف الإقامة".

كان تجار البندقية يترددون على أسواق مليلية. كانت هذه المدينة إحدى المحطات الهامة في مسار الأسطول التجاري الذي كان يقصد سواحل إفريقيا.

الفقرة الثالثة

في سبتمبر 1496، استولى دوق مدينة شذونة على مليلية. كانت المدينة شبه مهجورة بسبب اتفاق ضمني بين ملوك فاس وتلمسان الذين تنازعوا لفترة طويلة على حيازتها. وصل الدوق على حين غرة واستولى على المدينة دون قتال. وأمر بإعادة بناء الأسوار التي كانت في حالة سيئة، مع تقليص حجم المساحة المحصنة القديمة قليلاً، وبنى حصناً على صخرة تطل على المكان من الشمال الشرقي، وترك فيه حامية قوية مزودة بكل ما يلزم للدفاع، ثم عاد إلى مالقة.

على الرغم من الهجمات المتكررة والمستمرة من قبل المغاربة، إلا أن مليلية ظلت منذ ذلك الحين تابعة لإسبانيا. في عام 1563، حشد أحد المرابطين، الذي كان يحظى باحترام كبير في البلاد، عددًا كبيرًا من القبائل، قائلاً لهم إنهم إذا رافقوه إلى أسوار مليلية، فإنه سيسحر المدينة والمسيحيين في حضورهم "لدرجة أن أبواب المكان ستفتح من تلقاء نفسها وأن الجنود سيناموا دون أن يتمكنوا من إطلاق رصاصة واحدة من المدافع أو البنادق". صدق الأمازيغ ذلك وحددوا يوماً لمحاولة القيام بهذه المهمة. أُبلغ دون بيدرو دي فينيغاس، حاكم مليلية، بما يجري بواسطة أحد جواسيسه، فاتخذ الترتيبات اللازمة لاستقبالهم على أفضل وجه.

في اليوم المحدد، تجمع ما بين 10 و12 ألف مغربي أمام مليلية؛ وكان زعيمهم يسير أمامهم، ويلوح بذراعيه ويهتف بصوت عالٍ باسم الله ورسوله الكريم. وفجأة، ودون أن يتمكن أحد من معرفة كيف حدث ذلك، شوهد الباب يفتح؛ ولم تكن هناك أي حركة في المدينة، ووقف الحراس على الأسوار بلا حراك، وبنادقهم على أكتافهم. واقتناعا منهم بالقوة السحرية للمرابط، عبر الأمازيغ البوابة دون تردد، وكان الصمت يخيم على الشوارع ولم يشاهد أي جندي. كان الجميع يهنئون بعضهم البعض معتقدين أن المدينة قد سقطت، لكنهم سرعان ما أدركوا خطأهم. بإشارة من فينيغاس، برز الإسبان من كل جانب وأطلقوا

نيراناً كثيفة على المغاربة، مما أدى إلى سقوط عدد كبير منهم قتلى. أما الباقون، فلم يفكروا إلا في الفرار، وكان زعيمهم من أسرعهم ركضاً.

كان من المفترض أن يؤدي فشل هذه الحملة إلى إحباط معنويات الأمازيغ، لكنه لم يزعزع ثقتهم بأي شكل من الأشكال. أخبرهم المرابط أنهم لو لم يبدأوا بالصراخ فرحًا بالنصر فور دخولهم المدينة، ولم يوقظوا المسيحيين، لكانت المدينة قد سقطت. كما ادعى أنه تلقى عدة طلقات نارية في رأسه أثناء القتال، لكنها لم تصبه بأي أذى، وكشف عن آثارها. باختصار، فعل كل ما في وسعه لإقناعهم بالعودة معه إلى مليلية.

لكن دون بيدرو دي فينيغاس كان قد تم إخطاره وكان على أهبة الاستعداد. وجد الأمازيغ، بقيادة المرابط، البوابة مفتوحة كما في المرة الأولى، ودخلوا المدينة بأقل قدر ممكن من الضوضاء، كما أوصاهم زعيمهم، مع الامتناع بشكل خاص عن الصراخ وحتى عن الكلام. كان حوالي ستمائة منهم قد دخلوا المدينة عندما انخفضت فجأة شبكة حديدية كان حاكم مليلية قد وضعها مؤخرًا خلف البوابة. في الوقت نفسه، خرج الجنود من جميع المنازل، وهاجموا المغاربة بالرماح أو أطلقوا عليهم وابلًا من الرصاص. لم ينجو أحد. قُتلوا جميعًا أو أُسروا. أما الذين بقوا خارج المدينة، ومن بينهم المرابط، فلما رأوا أن البوابة قد أُغلقت وسمعوا صوت الطلقات النارية، سارعوا بالعودة إلى جبالهم، وقد فقدوا على الأرجح ثقتهم تمامًا في زعيمهم. ومنذ ذلك الحين، لم يُسمع شيء عن المرابط التعيس[4].

الفقرة الرابعة

لأكثر من قرن من الزمان، لم تضطر حامية مليلية إلى صد أي هجوم من المغاربة. في عام 1687، حاول السلطان إسماعيل الاستيلاء عليها. يقول الكتاب الإسبان إن السلطان كان قد استعان بمهندسين فرنسيين في جيشه لتنفيذ أعمال الحصار، لكنه فشل رغم هذه المساعدة. وقد حافظت الدفاعات القوية لدون فرانسيسكو مورينو على هذه المدينة لإسبانيا.

بعد سبع سنوات، عاد المغاربة إلى الظهور أمام مليلية. هذا الهجوم، الذي كان أكثر خطورة من الهجوم السابق، لم يتطرق إليه المؤرخون إلا لماماً. بدأ الحصار في عام 1694 واستمر، مع بعض الانقطاعات، حتى نهاية القرن السابع عشر. تقدم رسالتان موقعتان بخط اليد، كتبهما حاكم مليلية نفسه، دون دومينغو دي كانال إي سولفيديلا، بتاريخ 1 مايو و20 غشت 1697، بعض التفاصيل المثيرة حول هذا الموضوع. يبدو أن المدينة، التي كان المغاربة يحاصرونها بشكل محكم، كانت في حالة يرثى لها. نقدم هنا هاتين الوثيقتين الأصليتين[5].

"من حاكم مليلية إلى صاحب الفخامة السيد دوق هيجار.

أبلغ سعادتكم أنه في أيام 27 و28 و29 من الشهر الماضي (أبريل 1697)، تجمع حشد من المغاربة، يقدر عددهم بعشرة أو اثني عشر ألفًا، حسب تقديري، أمام المدينة. في الساعة 11 من مساء يوم 30، ظهروا بأعداد كبيرة في مواقعهم الهجومية وتقدم أربعة أو خمسة آلاف منهم نحو الحصن الذي هو قيد

[4] مارمور ــــ فيريراس.

[5] مكتبة الأمانة العامة للحكومة ــــ الأرشيف الإسباني C IV. رقم 3. ــــ نشر بيربروغر هاتين الرسالتين في مجلة Revue africaine، العدد 53، سبتمبر 1865.

الإنشاء حالياً. شنوا سبع هجمات قمت بصدها جميعاً؛ كما استخدموا خمس سلالم تمت إزالتها. ثم حاولوا ملء الخندق بأغصان الأشجار، وعلى الرغم من أنني هرعت على الفور لنجدة رجالنا مع قائد الفرسان دون دييغو دي بيريا وستين رجلاً، لم أتمكن من صدهم حتى الساعة الثالثة صباحاً: فقد أجبروني أربع مرات على التراجع مع رجالي. أخيرًا، بفضل النيران الكثيفة من البنادق والمدافع التي أطلقت من أسوار القلعة، تراجعت قواتهم قليلاً في الجزء المواجه لنا، فتمكنت من بذل جهد جديد ونجحت في طردهم من الخندق. استمر الهجوم خمس ساعات، وأؤكد لسموكم أن قوات جلالة الملك حققت نجاحًا كبيرًا في ذلك اليوم.

من ناحيتي، أعاني من نقص في عدد الجنود، كما سبق أن أخبرت سعادتكم؛ فلم يتبق لدي اليوم سوى 350 رجلاً قادرين على القتال. كما أننا نفتقر إلى الذخيرة الحربية: فليس لدينا ما يكفي لإطلاق النار لمدة عشرة أيام. كما أننا نفتقر إلى المؤن، ولم نتمكن منذ فترة طويلة من تناول وجبة ساخنة، حيث لا نملك قطعة خشب واحدة لإعداد وجباتنا. وقد اشتكيت مرارًا وتكرارًا من هذا الأمر إلى سلطات مالقة والمُوَرِّد؛ لكنني لم أحصل على أي شيء. إن لم يتم تدارك الأمر في الوقت المناسب، فمن المتوقع أن تقع كوارث كبيرة. ولكن يمكن لسموكم أن تطمئنوا إلى أنه في حالة سقوط هذا الموقع، فإن خندقه سيكون قبري وقبر كل الحامية."

الرسالة الثانية الموجهة إلى نفس الشخصية صيغت على النحو التالي:

"يحافظ المغاربة على مواقعهم الهجومية، وإن كان ذلك بأقل من نصف القوة التي كانت لديهم الشهر الماضي؛ لكنهم ما زالوا يمتلكون ما يكفي لإزعاجنا. إنهم الآن يقطعون موقع الهجوم من الأعلى، ويبنون في الخلف ما يشبه برجًا مكعّبًا، لكنه غير منتظم الشكل، من الأغصان والتراب. نعتقد أنهم يأملون بذلك في إعاقتنا عن تحصين المنشأة التي ما زلنا نبنيها؛ ولكن إذا لم يبادروا إلى فعل شيء آخر، فلن يزعجونا. ومع ذلك، عندما نلاحظ أنهم يستمرون في فعل ذلك، نبادر إلى إزعاجهم بنيران مدافعنا؛ ولكننا لا نستطيع منعهم من المضي في هذا العمل كل ليلة، قليلاً أو كثيراً.

دخلت أربع سفن للتو إلى الميناء، اثنتان محملتان بالمؤن، وثالثة بالجير والذخيرة الحربية، ورابعة بالخشب. وقد وصلت في الوقت المناسب: فبعد يومين كنا سنموت جوعاً، حيث وصلت الأوضاع إلى حافة الهاوية."

الفقرة الخامسة

في عام 1774، أرسل السلطان محمد بن عبد الله، دون إعلان الحرب على إسبانيا، جيشًا قوامه ثلاثون ألف رجل لمحاصرة مليلية. وادعى أنه إذا كان في سلام مع الملك كارلوس الثالث في البحر، فإنه ليس كذلك على اليابسة. أنفق السلطان مبالغ طائلة وقام باستعدادات كبيرة لإنجاح هذه المهمة: كانت مدافعه العديدة والمجهزة جيدًا تحت قيادة مهندسين إنجليز استدعاهم من جبل طارق. لكن ذلك لم ينقذه من الهزيمة. فقد هرع الجنرال شرلوك من مدريد مع تعزيزات ودافع بشجاعة عن الموقع. وبعد أن تم صدهم في عدة هجمات، اضطر المغاربة إلى رفع الحصار.

رداً على هذا التصرف العدواني الذي لم يكن له أي مبرر من جانبه، فرضت السلطات الإسبانية حصاراً على جميع موانئ المغرب. ويُقال إن السلطان محمد بن عبد الله أراد أن يزيل الانطباع السيئ الذي تركه انسحاب جيشه والحرب مع إسبانيا في أذهان الشعب، فأطلق شائعة أنه اتفق مع الملك كارلوس على أن يسلمه مليلية بمجرد أن يتمكن من كبح جماح الرهبان وغيرهم من رجال الدين في مملكته الذين رفضوا الموافقة على التنازل عن هذه المدينة.

الفقرة السادسة

تقع مليلية على شبه جزيرة متصلة بالقارة بواسطة برزخ صخري طوله 40 متراً وعرضه 31 متراً. لطالما عُرفت هذه المنطقة بمنعتها. فمن الشمال، يتعذر الوصول إليها بسبب المنحدرات الصخرية التي تقع عليها جزئياً. ويحميها من الجهة الشرقية حاجز بسمك ثلاثة أقدام، وفي وسطه برج بيضاوي الشكل. من الجنوب، يحميها حاجز أسطواني آخر يسمى لاس كابراس؛ وأخيرًا، على الجانب الغربي، توجد البوابة مع برج سانتياغو الكبير. من هذا الجانب، يتصل الحاجز بطريق مغطى بالتحصينات الخارجية. ويشمل البرزخ، بكامل طوله، العديد من الخنادق. تتكون حامية مليلية من كتيبة قوامها 800 رجل بقيادة عقيد. ويبلغ عدد المحكوم عليهم أو السجناء ما بين 400 و500 شخص. كل شهر، تربط مليلية بمالقة سفينة.

إلى الجنوب الشرقي، على مسافة قصيرة وفي مرمى مدافع الحصون، يقع ميناء مليلية. إنه صغير ولا يستطيع استقبال سوى السفن الشراعية وغيرها من السفن ذات الحمولة الصغيرة. عادة ما ترسو السفن الكبيرة في الشرق، على بعد نصف ميل من القلعة، في مياه بعمق 20 إلى 25 ذراعًا، ولكن كان عليها أن تكون دائمًا على استعداد للإبحار عند أدنى هبوب للرياح الآتية من عرض البحر.

ميناء مليلية، كما يقول مؤلف مجهول لكتاب مسالك بحرية غير منشور يحمل تاريخ 1669[6]، هو مكان جيد إلى حد ما، على الرغم من ضحالة المياه عند مدخله؛ ولكنه يوفر مرسى مناسبًا في الداخل. على الجانب الأيمن، عند مدخله، توجد تيارات بسبب انخفاض الرأس.

مليلية معزولة تماماً عن باقي المناطق الداخلية للبلاد، والجنود الذين يحرسونها لا يغادرون أبداً أسوارها الضيقة. هذا النظام القائم على الجمود والعزلة التامة، الذي اعتمدته إسبانيا لمعاقلها على ساحل إفريقيا، يُطبق بصرامة. منذ الحرب الأخيرة في المغرب، أصبح الإسبان محاصرين بشكل أقل في مليلية؛ ولكن على الرغم من أن السجن توسع قليلاً، إلا أنه ظل سجنًا[7]. وكما يقول بيربروجر[8]،" تقف الحامية هناك، وجهًا لوجه أمام المغاربة، في وضع مشابه لوضع الإنجليز في جبل طارق؛ والفوارق الدقيقة التي تميز الدول المتحضرة عن الشعوب البربرية في معاملاتها الدولية هي وحدها التي تصنع الفارق. وهذا هو العاقبة الحتمية لأي احتلال محدود."

---

[6] خريطة البحر الأبيض المتوسط، 1669، م. من المكتبة الوطنية. F.R. 741.

[7] تنص المادة 6 من المعاهدة المبرمة في 26 أبريل 1860 مع سلطان المغرب على أنه "سيتم تعيين قائد على رأس قوات نظامية في المنطقة المحايدة الممنوحة لمدينتي سبتة ومليلية، وذلك بهدف منع وكبح هجمات القبائل". وتنص المادة نفسها على أن قوات الحراسة المغربية التابعة للسلطان بالقرب من حجرة باديس وحجرة النكور يجب أن تظل متمركزة على شاطئ البحر.

[8] Revue africaine, العدد 53، ص 370.

الفقرة السابعة

مليلية هي Russader Colonia التي يوردها بلينيوس من مسالك أنطونيوس تحت اسم Rusadiroppidum[9]. في العصر الروماني، كانت المكان الوحيد المتاح للتجارة في هذه المنطقة المجهولة.

الفقرة الثامنة

بعد مليلية، يستمر الساحل الصخري شديد الانحدار في الارتفاع شمالاً حتى رأس الدير، رأس روسادي في مسالك أنطونيوس ورأس الفرشات الثلاث الإسباني[10]. تشير جميع الوثائق البحرية القديمة إلى هذا النتوء البارز الذي يغلق من الغرب الخليج الواسع الذي يصب فيه نهر ملوية. تسميه خريطة بيزا Tarf ofolco؛ لكن الخرائط الإيطالية الأخرى، وكذلك الأطلس الكتالوني، تسميه Cavo de III forchs.

" رأس الفرشات الثلاث، كما يذكر دليل الملاحة البحرية لعام 1669، هو مرتفع مع ثلاثة صخور صغيرة على الجانب الشرقي، واحدة كبيرة واثنتان صغيرتان تشكلان مثلثًا، ويوجد ممر بينها للسفن الشراعية." لا تضيف الخرائط البحرية الحديثة أي شيء إلى هذا الوصف.

وفقًا لتقرير رينو، فإن هذا الرأس هو رأس بَلان الذي ذكره الإدريسي. يقول: "يبدو لي من المرجح جدًا أن رأس بَلان هو ما يسميه الإسبان الفرشات الثلاث، على الرغم من أن الإدريسي يضعه على بعد 12 ميلًا (18 كيلومترًا) فقط من المزمّة. وبما أن هذا الجغرافي لم يذكر أي رأس آخر، فإنني أجد صعوبة في تصديق أنه أغفل نقطة مهمة مثل رأس الفرشات الثلاث، وأنه يصف رأس بلان نفسه على أنه يتقدم بعيداً في البحر. يبدو لي أن التوافق بين الرأسين أكثر وضوحًا من خلال هذه المؤشرات مما يمكن أن يكون من خلال مسافة من المحتمل جدًا أن تكون غير دقيقة[11]."

يطلق البكري على نفس الرأس اسم طرف هرك، ويقول إن السفن الصغيرة يمكنها أن تلتجئ وراء صخوره، حتى في فصل الشتاء. ويخبرنا ابن خلدون أن القبائل التي كانت تسكن هذا الجزء من الساحل، من ملوية إلى وادي البقر(أمقران)، كانت معروفة لدى أمازيغ الداخل باسم أهل رأس هرك.

[9] روسيديرون في جداول بطليموس.
[10] رأس Entrefolcos عند مارمول.
[11] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

الفقرة التاسعة

بعد تجاوز رأس الفرشات الثلاث، نتوغل في المضيق الكبير الذي يشكله هذا الرأس الشرقي ورأس سبتة غرباً. ويشمل هذا المضيق كامل الساحل المتوسطي للمغرب.

نجد أولاً الكدية التي تذكرها جميع الخرائط القديمة، ولكن من الصعب جداً تحديد موقعها. Baudin الذي يذكر في مؤلفه "Pilote de la Méditerranée" أسماء جميع المراسي والشواطئ والرؤوس التي تقع غرب رأس الفرشات الثلاث، لا يذكر هذا المكان[12]. يقول: "وراء الرأس، ترتفع التلال على مسافات متباعدة؛ وعلى الساحل، لا يمكن رؤية سوى شاطئ مكشوف، تنتشر فيه خلجان رملية أو نتوءات أرضية.

كلمة الكدية باللغة العربية تعني الإقليم أو الولاية[13]. نعتقد أن مؤلف خريطة مكتبة بينيلي المجهول الذي ذكر كدية الفرشات الثلاث هو الوحيد الذي فهم معنى هذه الكلمة. على ما يبدو، لم يكن اسم الكدية في الأطلس الكتالوني والخرائط الإيطالية يشير إلى مرسى أو خليج صغير أو نتوء صخري، بل إلى مقاطعة جارة بأكملها، الواقعة بين نهري ملوية ونكور، أو على الأقل إلى جزء من هذه المقاطعة نفسها. هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها مويلت (Alcaladia) ويظهر في خريطة بريثويت.

الموقع الذي خصصته الوثائق البحرية في العصر الوسيط للكدية يتوافق تقريبًا مع الموقع الذي تحتله زيرا في خريطة Vincendon-Dumoulin لعام 1855.

الفقرة العاشرة

يذكر الأطلس الكتالوني لفيرير وبعض الخرائط الإيطالية بعد ذلك طرف قيراط (طرف قرط) ورأس ترامونتانا أو رأس الريح الشمالية لدى الإسبان وسستياريا أكرا لدى بطليموس[14]. طرف كرط هو اسم وادي صغير يقع بالقرب منه. يوجد عند مصب هذا النهر خليج صغير أو خور يسميه القبطان غوتييه Cala Quiert[15]، ويحمل في Derrotero de Tofiño نفس اسم الرأس. يمكن للقوارب المحلية أن تلتجئ إليه هربًا من رياح الشمال الشرقي: فهي ترسو على قاع طيني بعمق 12 ذراعًا. لا تظهر Tarfo Quirat على خريطة فيسكونتي وخريطة مكتبة بينيلي.

12 ترامونتانا، بخاروس، بينو، كيماداس، أورتاس، بويلوتو، جرف، كاستيو، زيرا، توكي، ليكين، نهر قيرات، عبدون، نوفتيس، إلخ.

13 أركادية في الحوليات القديمة.

14 فينسندون-ديمولان أطلق عليه اسم رأس نيكَري.

15 الخريطة الهيدروغرافية للبحر الأبيض المتوسط، 1820.

الفقرة الحادية عشرة

اثنتان من الخلجان الصغيرة الأخرى التي أشار إليها Baudin، غرب رأس الفرشات الثلاث، وهما نوفتيس (أفتيس) وتيممسان (تمسمان) مدرجتان على خرائط فيرير وباتيستا أغنيسي.

لا توفر الخرائط البحرية الحديثة أي معلومات عن هذين الموقعين المجهولين تقريبًا، ومن بين الجغرافيين القدماء، فإن البكري هو الوحيد الذي ذكر في مسالكه على الساحل الشمالي للمغرب تيمسمان أو تمسمان، كما سماه. أما نوفتيس (أفتيس)، فهو لم يذكره. يقول: "يقع مرسى تمسمان على وادي البقر (أمقران)، على بعد إثنين وثلاثين كلم شرق النكور. إنه مرسى مفتوح فقط في الصيف، وحتى خلال هذا الموسم، فإن الرسو فيه غير آمن. يقع مرسى المرية على الساحل الإسباني المقابل".

الفقرة الثانية عشرة

يظهر رأس كيلاتيس أو كالاداس، أو رأس القصب (Promontorium cannarum) من مسالك أنطونيوس، الذي يأتي بعد ذلك، على جميع الخرائط القديمة؛ وتطلق عليه هذه الخرائط اسم طرف كَاريل[16]، وهو اسم أطلقه عليه العرب على الأرجح. تشير الخرائط البحرية الحديثة إلى وجود خط من الصخور الشاطئية على بعد ميل واحد إلى الشمال الغربي من الرأس، ونعتقد أن هذا هو المكان المناسب لوضع الشريط الطويل من الصخور المغمورة بالمياه، الذي أطلق عليه الرومان اسم Taenia longa، وليس إلى الغرب منه كما فعل Mannert.

يشكل رأس كيلاتيس الطرف الشرقي لخليج المزمّة أو الحسيمة، كما يسميه الإسبان، والذي يبلغ عمقه، حسب بودان، ميلًا واحدًا. الأراضي على جانبي الخليج جبلية وخالية تمامًا من النباتات؛ لكنها تنخفض نحو الوسط وتنتهي في الأسفل بسهل جميل ونهرين[17] تريح شواطئهما المبهجة العين. مع هبوب الرياح البرية، يمكن الرسو في الخليج بأمان: القاع جيد، ويمكن العثور على عمق يصل إلى خمسة أو ستة أمتار في كل مكان؛ ولكن عندما تهب الرياح البحرية، من الحكمة الابتعاد عنه بأسرع ما يمكن: لا يمكن مقاومة عنف البحر. يغلق مورو نويفو، أو رأس الكندي (دهار نَرْعَابَثْ باللسان المحلي)، وهو نتوء صخري منخفض يشار إليه في خرائط الملاحة البحرية في العصر الوسيط دون تسميته، خليج المزمّة من الغرب.

[16] يقول Renou: "كلمة طرف في اللغة العربية لها معانٍ مختلفة، ولكنها غالبًا ما تستخدم للإشارة إلى رأس البحر. وهي منتشرة على سواحل إسبانيا، ويبدو أن اسم طرفلغار، على الرغم من الاشتقاقات اللغوية المختلفة التي اقتُرحت له، هو بلا شك طرف الغار، أي "رأس الكهف"، والذي كان الإسبان، وفقًا لطريقة النسخ التي استخدموها دائمًا، يكتبونه عادةً طرفلغار.

[17] نهر النكور ونهر غيس.

الفقرة الثالثة عشرة

بين هاتين النقطتين، توجد ست جزر صغيرة، تسمى Albouzaines، كما يسميها دليل الملاحة البحرية لعام 1669[18] وSex Insulae عند الرومان. على قمة إحدى هذه الصخور، على بعد ميلين من رأس الكندي (دهار نَرْعَابَثْ)، يظهر مثل عش نسر، السور المحصن لجزيرة النكور، الذي يعود تاريخه إلى عام 1673.

قبل بضع سنوات، حصلت شركة فرنسية من السلطان المغربي رشيد على إذن لإنشاء مرفأ تجاري على ساحل الريف، واختارت خليج المزمة لوضع مخازنها هناك. لسوء الحظ، تسربت الأخبار قبل الأوان، وتآمر الإسبان بشكل حثيث لدرجة أن الإذن الممنوح للتجار الفرنسيين تم سحبه. ولقطع الطريق على أي محاولة جديدة، قام البلاط الملكي في مدريد بالاستيلاء على إحدى جزر الخليج[19].

يبلغ محيط الصخرة التي يقع عليها موقع حصن جزيرة النكور كيلومترين على الأكثر. وهي صعبة المنال من الجهتين الشمالية والشرقية. إلى الغرب، تم بناء بطاريات تطل على الشاطئ والمناطق المجاورة حتى وادي النكور، وإلى الجنوب، حيث يوجد مرسى لسفن النقل، هناك ثلاثة شوارع مع سورين مغطيين ببناء حجري متين. في داخل الساحة توجد قلعة محاطة بأربعة أبراج كبيرة أسطوانية الشكل. يبلغ قوام الحامية 120 رجلاً مع 100 مدان أو سجين[20].

المياه التي يستخدمها المقيمون في الجزيرة، والتي يتم الحصول عليها جزئياً خلال موسم الأمطار وجزئياً يتم جلبها من الساحل الإسباني، يتم تخزينها في ثلاث خزانات كبيرة قديمة البناء، حيث تكتسب، كما يقال، في غضون أيام قليلة، أفضل خصائص المياه الصالحة للشرب.

لا توجد أي اتصالات بين جزيرة النكور والمناطق المحيطة بها: إنها سجن بالنسبة للجنود المكلفين بحراستها وبالنسبة لمن يتم احتجازهم فيها.

تقع المدينة الإسلامية التي أعطت اسمها لخليج المزمة على بعد ثماني كيلومترات من البحر[21]، على نهر النكور، وهو نهر لاو الذي ذكره بلينيوس، والذي كان بإمكان السفن أن تبحر فيه في عصره[23][22]. وقد ذكرها جميع رسامي الخرائط القدامى، لكن باتيستا أغنيسي هو الوحيد الذي ذكر النهر.

---

[18] وقال: "في وسطها، تستطيع السفن الشراعية الكبيرة (القوادس) أن ترسو".

[19] Relation d'un voyage en Afrique ،Roland Fréjus (تقرير عن رحلة إلى إفريقيا). 1670. — ادعى الإسبان أن هذه الجزيرة الصغيرة ملك لهم وأنه قد تم التنازل عنها لهم في عام 1560 (هذه المعلومة خاطئة وملفقة لأن السلطان عبد الله بن إسماعيل ولد عام 1757 وتوفي عام 1694) من قبل السلطان عبد الله بن إسماعيل العلوي، وذلك لمنع أتراك الجزائر من الاستقرار فيها. ووفقًا لتقرير ماديز، استولوا عليها في 28 غشت 1673.

[20] .Fr. Coello et Madoz, Mapa de las posesiones de Africa, 1850

[21] يقصد مدينة النكور، أما مدينة المزمة فتوجد على الشاطئ مقابل جزيرة النكور

[22] واد لاو يوجد بالقرب من مدينة تطوان وكان يصل هذه المدينة بالبحر المتوسط في العصر الوسيط قبل أن يقوم الإسبان بردم مصبه

[23] Flumen Laud، ipso rum navigiorum capax. — يطلق عليه بطليموس اسم Thalada (تامودا) — يفصل وادي النكور بين إقليم جارط وإقليم الريف. هذا الاسم الأخير، الذي كان في القرن العاشر يطلق فقط على المنطقة الجبلية الواقعة بين وادي النكور وتطوان، أصبح اليوم يطلق على كامل الساحل الأفريقي الممتد من هذه المدينة إلى وادي ملوية. الريف هو مصطلح يستخدم للإشارة إلى أي منطقة تطل على البحر. ويشير Renou إلى أنه من حيث النطق والمعنى، فإنه يكاد يكون مطابقًا للكلمتين الفرنسيتين "rive" و"rivage" والكلمة اللاتينية "ripa".

يتحدث الجغرافيون العرب في العصر الوسيط عن المزمة باعتبارها مدينة غنية يرتادها التجار الذين كانوا يعيشون على الجانب الآخر من بحر الروم. ويقولون إن أسواقها كانت تزخر بكل ما يلزم للحياة. كانت السلع الرئيسية التي تصدرها هي الصوف والحبوب (الشعير والقمح).

وراء رأس القنصل، يتغير شكل الساحل: فهو يرتفع ولا يعود يحتوي على نفس المنحدرات الضيقة والعميقة. يبدو وكأنه فالج حاد. في منتصف الطريق تقريباً بين المزمّة وباديس، يذكر الإدريسي بوسكور دون أي إشارة أخرى. هذه النقطة، التي تظهر في الخرائط القديمة تحت اسم Busencor، ترد تحت اسم Bosikou في خريطة حوض البحر الأبيض المتوسط لعام 1843. يوجد في هذا المكان رأس مع خليج صغير؛ لكن هذا الأخير لا يوفر أي أمان حتى للقوارب الصغيرة.

الفقرة الرابعة عشرة

على بعد مسافة قصيرة يظهر رأس بابا أو رأس تمنسور(أدوز)، الذي يتكون من كتلة من الأراضي المرتفعة التي تحيط بها المنحدرات. بعد تجاوزه، نكتشف جزيرة باديس، التي تقع على بعد نصف ميل من الرأس، وفي عمق الخليج توجد مدينة باديس أو فيليز دي لا غوميرا (بلش غمارة)، كما يسميها الإسبان.

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كانت باديس محطة تجارية معروفة. كانت تعتبر منفذ مدينة فاس على البحر الأبيض المتوسط؛ فهي أقرب نقطة على ساحل الريف إلى هذه المدينة. يخبرنا ليون الأفريقي (الحسن الوزان) أن البندقيين كانوا يزورون باديس. كل سنتين، كان الأسطول التجاري الذي يقصد سواحل إفريقيا يرسو خلف جزيرة باديس. كان موعد وصول السفن يتم الإعلان عنه مسبقًا في البلاد، وفي اليوم المحدد كان سكان القبائل يسارعون إلى باديس لتبادل البضائع مع التجار المسيحيين. يتحدث البكري وأبو الفدا عن "أسواق باديس العامرة، وهي مدينة مشهورة بين جميع مدن منطقة غمارة[24] ". كان هناك أكثر من مائة منزل لليهود في ذلك الوقت.

وقد وردت مدينة باديس في جميع الخرائط البحرية القديمة، حتى أن باتيستا أغنيسي أشار إلى النهر الصغير الذي يجري في عمق الخليج. ووفقاً لغرابرغ وفريديريك لاكروا وغودار، فإن المدينة الإسلامية قد حلت محل مدينة باريتينا القديمة، ويبدو أن هذا التشابه في الاسم أمر محتمل.

[24] كان هذا هو الاسم الذي أطلق في العصر الوسيط على مقاطعتي الريف وجارط، اللتين كان تسكنهما غمارة، إحدى القبائل الخمس الكبرى التي شكلت الأمة الأمازيغية. يقول ابن خلدون: "تبلغ مساحة بلاد غمارة أكثر من خمسة أيام سيرًا، من وادي ملوية إلى طنجة. ويبلغ عرضها أيضًا خمسة أيام سيرًا، من البحر إلى سهول نهر ورغة. وباتباع هذا الاتجاه، نصادف على التوالي عدة سلاسل من الجبال الشاهقة، تشكل حواجز ترتفع إلى ما لا نهاية ولا تستطيع الطيور الوصول إلى قممها. بين قمم هذه الجبال توجد عدة ممرات تتيح مرور المسافرين وتحتوي على مراعي وأراضي مزروعة وبساتين تشبه الحدائق." كتاب العبر الجزء الثاني.

الفقرة الخامسة عشرة

يروي Suarez Montanes أنه في عام 1499، أمر ملك البرتغال ببناء حصن في مكان يسمى قلعة (صنهاجة) يقع على مسافة قصيرة غرب باديس، وذلك بهدف مراقبة تحركات القراصنة في تلك المدينة وكبح جماحهم؛ ولكنه سرعان ما أدرك صعوبة إمداد هذا الموقع، فأمر بتفكيكه. وانسحبت الحامية الصغيرة التي كانت تحتل القلعة إلى سبتة[25].

في عام 1508، خرج الكونت بيدرو نافارو، أميرال الأسطول الإسباني، من مالقة لمطاردة بعض سفن الباديسيين التي شوهدت على سواحل الأندلس، فهاجمها واستولى على ثلاث منها وطارد البقية حتى وصل إلى مرفئها. ورغبةً منه في القضاء على هؤلاء القراصنة الجريئين، قرر بناء حصن على صخرة باديس المقابلة للمدينة، ليتمكن من السيطرة عليها تمامًا. "بعد أن حصل على إذن من الملك فرناندو الكاثوليكي"، يقول مارمول، "بنى على الجزيرة الصغيرة برجًا متينًا من الكلس والرمل، وحصّنه، ووضع عليه خمسة مدافع كبيرة من النوع الذي كان يُصنع في ذلك الوقت، ووضع فيه ثلاثين جنديًا تحت قيادة ضابط يُدعى فيالوبوس، مع المؤن والذخيرة اللازمة". حاول سكان باديس استعادة الجزيرة، لأن احتلالها من قبل الإسبان جعل من المستحيل الرسو في مرفئها ولم يعد بإمكانهم بناء سفن شراعية وسفن شحن لتجوب البحر الأبيض المتوسط. ولم تتردد الحامية في إطلاق النار على المدينة كلما تأخروا في إمدادها بالمؤن التي تحتاجها. طلب المنصور، حاكم باديس، المساعدة من سلطان فاس، فأرسل له هذا الأخير 2000 من رماة البنادق مع عدد من المدافع، فحاصر المنصور صخرة باديس وقصفها من مرتفعين مجاورين، هما رأس بابا ورأس واد باديس؛ لكن الإسبان صدوا هجومه بشراسة وقتلوا الكثير من جنوده بواسطة مدافعهم الخمسة، مما أجبر المنصور على التخلي عن محاولته.

بعد بضع سنوات، تغير حظ الحاكم. أدرك استحالة أخذ الجزيرة بالقوة، فلجأ إلى الحيلة. «كان للقائد الإسباني عيبان، لم يكونا بنفس الدرجة من السوء، لكنهما كانا يؤديان دائمًا إلى عواقب سيئة: كان يحب المال والنساء.» بعد أن علم الحاكم بجشع فيالوبوس، أرسل إليه اثنين من المغاربة ادعيا أنهما خبيران في تحويل المعادن وعرضا عليه صنع نقود مزيفة. وافق القائد بعد تجربة أولية أجريت أمامه وتكللت بالنجاح. أقام الخيميائيان في شقته، وبعد أن نصبا أفرانهما، بدآ العمل على الفور. كان قد تم الاتفاق على أنهما سيكونان المسؤولين عن توزيع النقود المزيفة في البلاد، وأن الأرباح التي سيجنيانها ستقسم بالتساوي بينهما وبين القائد. كان المغربيان، بحجة توزيع نقودهما المزيفة، يذهبان بشكل متكرر إلى باديس ويخبران الحاكم بكل ما يجري في القلعة. استمر هذا الوضع لمدة شهر تقريبًا، ولم يحدث أي تقدم، إلى أن جاءت خيانة جندي كان فيالوبوس قد أغوى زوجته لتقدم أخيرًا إلى المنصور وعميليه الفرصة التي كانوا ينتظرونها. هذا الرجل، الذي كان متحمسًا للانتقام من الإهانة التي تعرض لها، والذي كان قد خمن على الأرجح المخطط السري لصانعي العملة المزيفة، اتفق معهما. بعد أن تم إخطاره بالمؤامرة، وعد الحاكم بمساعدة المتآمرين. وفي إحدى الليالي، نجح الجندي في إبعاد رفاقه الجنود، فاغتنم المغربيان اللذان كانا يتجولان مع فيالوبوس على منصة القلعة الفرصة وهاجموه فجأة وقتلوه. ثم نزلوا وأغلقوا بوابة القلعة، حيث كانت جميع الذخائر محفوظة، ثم أشعلوا نارًا كبيرة لإبلاغ المنصور الذي كان متربصًا. سارع هذا

[25] في عام 1499، بنى البرتغاليون قلعة أو برجًا في مكان قريب من بلش غمارة (باديس)، أطلق عليه المغاربة الذين يسكنون ذلك الساحل اسم قلعة (صنهاجة)، ثم هجروه في عام 1504. — Híst, de Africa, p. 708.— Manuscrits de la bibliothèque du Secrétariat général du Gouvernement, C. vii, n° 1.

الأخير إلى الحضور واستولى على الجزيرة دون أن يتمكن الجنود من المقاومة. قُتلوا جميعًا حتى آخرهم. وقع هذا الحدث في 10 ديسمبر 1522[26].

بعد ثلاث سنوات، حاول الإسبان استعادة جزيرة باديس. قام مدفعي مسيحي كان محتجزًا في القلعة، وربما كان هو نفسه الجندي الذي ساعد في تسليمها إلى الحاكم، بإبلاغ مركيس موندخار، القائد العام لمملكة غرناطة، سراً بأن يتوجه ليلاً إلى القلعة مع بعض السفن، ووعده بأن يوجه المدافع إلى أعلى بحيث لا تزعج المهاجمين ويمكنهم الاستيلاء على القلعة بالتسلق قبل أن تتمكن المدينة من إنقاذها. أبحر المركيس بأسطوله إلى مياه باديس، وانتظر حلول الليل ليقترب من الخليج؛ ولكن المدينة كانت على علم بوصوله إلى الساحل، وسارع المغاربة إلى تعزيز حامية الجزيرة، فلم يتمكن من شن هجومه.

في عام 1554، حصل صالح ريس (الذي كان في خدمة أتراك الجزائر)، والذي كان قد أعاد للتو أبو حسون الوطاسي سلطان فاس إلى العرش، على جزيرة باديس من هذا الأمير، مكافأةً له على الخدمة التي قدمها له. احتفظ أتراك الجزائر بها لمدة عشر سنوات. حاول الإسبان في عام 1563 استعادة هذا الموقع المهم، لكنهم لم ينجحوا. كان فشل هذه المحاولة مؤلماً في إسبانيا، وفي العام التالي، استجاب الملك فيليبي الثاني لطلبات أمراء أراغون وبلنسية وكاتالونيا، وقرر محاصرة معقل القراصنة هذا الذي كان يقوض التجارة الإسبانية للمرة الثانية. جمع أسطولًا من 90 قادسا وفرقاطة وأسند قيادته إلى دون غارسيا دي طوليدو، نائب ملك صقلية.

عندما وصلت الأنباء الأولى عن هذا الحشد العسكري، سارع الأتراك إلى تعزيز جميع المواقع التي كانوا يحتلونها على الساحل: تم زيادة حامية جزيرة باديس التي كانت تتألف عادة من 50 رجلاً إلى 150 رجلاً. في 2 سبتمبر 1564، بعد أن نزلت القوات بالقرب من برج قلعة (صنهاجة)، تقدمت على الفور نحو مدينة باديس واستولت عليها دون أن تواجه أي مقاومة؛ فقد فر جميع السكان مع عائلاتهم إلى الجبال، حاملين معهم أغلى ما يملكون. تم على الفور إنزال المدفعية ونصب عدة بطاريات لقصف الجزيرة. في البداية، أبدى الأتراك مقاومة جيدة؛ ولكن بعد أن دمرت المدفعية المسيحية جزءًا كبيرًا من الأسوار وحطمت ثلاثة من مدافعهم، فقدوا الأمل في الدفاع عن أنفسهم لفترة أطول وأخلوا الجزيرة تحت جنح الظلام. في اليوم التالي، 6 سبتمبر، استولى الإسبان على المكان الذي فتح أبوابه بعض الجنود الذين لم يتمكنوا من الفرار مع الآخرين.

ظلت هذه القلعة منذ ذلك الحين في أيديهم، على الرغم من أنهم لا يجنون منها أي ربح على الإطلاق. كما أن مدينة باديس أصبحت اليوم مهجورة تقريبًا، بعد أن لعبت، كما رأينا للتو، دورًا مهمًا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

[26] Marmol, Suarez Montanes, Minana.

الفقرة السادسة عشرة

صخرة باديس، شديدة الانحدار ومحاطة بالبحر من جميع الجهات، يفصلها عن معسكر المغاربة الذي يقع في الجهة المقابلة على البر بخليج يبلغ عرضه حوالي 409 أمتار. في أحد طرفي الممر، يوجد حصن صغير مزود ببعض المدافع، مبني على صخرة تربط الجزيرة الرئيسية بواسطة جسر طبيعي لم يضف إليه الإنسان أي شيء تقريبًا. مدينة الجزيرة، كما يسميها الإسبان، مبنية على شكل مسرح، وتتكون من شارعين فقط، ولا يمكن الصعود إليها إلا عبر ممر ضيق لا يتسع إلا لرجل واحد. عند الدخول من بوابة البارديرو المزودة بباب حديدي قوي ومحمية بشارع ترينيداد، نجد مخزن البارود محاطاً بسور حديث البناء. يوجد مخزن الأسلحة ومخزن المؤن في حصون القديس فرانسيسكو والقديس أنطونيو؛ وتستخدم الأخيرة أيضًا كسجن للمحكوم عليهم. يفصلها الخندق الذي يحيط بها عن حي المدفعيين، الذي يقع في مكان أقل ارتفاعًا ويتصل بها بواسطة جسر متحرك وبوابة حديدية. ثم تأتي ساحة صغيرة وكنيسة تكريماً للعذراء مريم، ثم شارعا القديس ميغيل والقديس خوليان، مع المستشفى ومقر إقامة الحاكم الذي يشغل الجزء الأعلى من المدينة.

يتم إرسال جميع الإمدادات من مالقة. لا توجد مصادر مياه داخل أسوار جزيرة باديس، مثلها مثل جزيرة النكور، ولا تكفي مياه الأمطار لتلبية احتياجات قاطنيها، لذا يضطرون إلى جلب المياه من إسبانيا عندما تجف الصهاريج. يبلغ قوام الحامية 300 رجل و250 سجين. أما السكان المدنيون، فعددهم صفر.

الفقرة السابعة عشر

على بعد 6 أميال (10 كيلومترات من باديس)، يوجد مرسى إيليس (باليش) أو إيريس، الذي تذكره جميع الوثائق البحرية القديمة. يتم كتابة هذا الاسم في الأطلس الكتالوني والخرائط البحرية الجنوية إليس؛ وفي خريطة بيزا إيريس[27]. مرسى باديس غير آمن. لا يمكن للسفن أن ترسو فيه في أي موسم من المواسم، وبعد إنزال حمولتها، عادة ما تنسحب إلى إيليس. إنها بلدة فقيرة يسكنها الصيادون فقط وتكتسب أهميتها فقط بسبب مرساها؛ حيث أنه جيد ويوفر الحماية الكافية. توجد جزيرة صغيرة (جزيرة بني بو فراس (فراح)) عند مدخل الخليج. يضع Renou خطأً إيلس، كما فعل مارمول، بين باديس والمزمة.

بعد باليش، يبدأ الساحل، الذي لا يزال شديد الانحدار، في الانعطاف نحو الشمال. يشير فيسكونتي وخريطة مكتبة بينيلي إلى وجود ملاحات؛ بينما لا تشير خرائط فيرير وباتيستا إلى ذلك. إنها سبخة مسطاسة التي تزود منطقة الريف بالملح؛ ويأتي الناس من طنجة لشرائه. تنتج المنطقة المحيطة بمسطاسة أيضًا الكثير من الشعير، الذي يأتي مغاربة تطوان لشرائه ثم يعيدون بيعه للتجار الإسبان. في عهد البكري، كانت مسطاسة أو مشلاصة قلعة أخذت اسمها من القبيلة الأمازيغية التي كانت تسكنها. يعطيها غرابرغ وغودار اسمًا قديمًا هو مدينة أكراث التي ذكرها بطليموس.

---

[27] من المحتمل أن تكون كلمة باليش هي التسمية العربية، وكلمة إيريس هي التسمية الإسبانية.

بعد السبخة التي ذكرها فيسكونتي، تورد بعض الخرائط القديمة نقطة تسمى سالتيسا أو سالتاس (تغسة). الموقع الذي تورده هذه الخرائط يتطابق تقريبًا مع موقع برج الصيادين، Promontorium barbari في مسالك أنطونيوس، وربما رأس الزيتون البري، Promontorium oleastrum الذي تذكره جداول بطليموس. وتشير الخريطة الملاحية لعام 1669 إلى أنه "في قلعة الصيادين، توجد مراسي للسفن الصغيرة التي تبحر مع الرياح الشرقية".

من هذه النقطة وحتى مرسى تيطاوين، ليس هناك سوى شاطئ طويل مفتوح، بدون أية حماية. خلف الشريط الساحلي، ترتفع جبال شاهقة تبدو وكأنها تزداد ارتفاعاً كلما توغلنا نحو الداخل.

الفقرة الثامنة عشرة

ثم يذكر الأطلس الكتالوني وخريطة باتيستا أغنيسي تيرغة أو ترغة، التي لا يمكن أن تكون سوى قصر تاسكة الذي ذكره الإدريسي، على الرغم من أن الموقع ليس هو نفسه. ويشير باتيستا إلى وجود نهر صغير قريب، إلى الغرب قليلاً، يسميه شيرش، "حيث كان بالإمكان التزود بالماء[28]." وهو غير محدد في خريطة فيرير. يذكر ليون الإفريقي ومارمول ترغة كمنطقة كانت تشهد في عصرهما حركة تجارية كبيرة للأسماك المملحة. كان أمازيغ الداخل يترددون عليها لتجديد مؤنهم: "الصيد في محيط ترغة وفير للغاية، كما يقول مارمول، لدرجة أنه يقال إنه يمكن أن يزود نصف مملكة فاس بالأسماك."

لا يذكر فيسكونتي ترغة، لكنه يشير إلى النهر الذي يسميه شيرش مثل أغنيسي. وهو وادي كركال عند الإدريسي وريو دي ألاموس في الخرائط الإسبانية[29]. يشير Mannert إلى خط الصخور عند مصبه الذي أطلق عليه الرومان اسم Tœnia longa؛ لكنه مخطئ، كما رأينا؛ وقد ارتكب Frédéric Lacroix نفس الخطأ[30].

الفقرة التاسعة عشرة

يبدو أن ترغة كانت ذات أهمية في القرن السادس عشر، حيث قام البرتغاليون بعدة محاولات للاستيلاء عليها أو تدميرها. في عام 1493، علم د. فرناندو دي مينيسيس، حاكم سبتة، أن ترغة كانت غير محمية بشكل جيد، فجمع كل القوات المتاحة له، وظهر بشكل مفاجئ أمام المدينة واستولى عليها على حين غرة. أسر أكثر من 300 سجين وأحرق 25 سفينة كبيرة وصغيرة في المرسى. تضيف الحوليات التاريخية أن نبأ هذا النجاح السعيد ساهم كثيرًا في تخفيف حزن الملك دون خوان، الذي كان قد فقد للتو ابنه الوحيد، الأمير دون ألفونسو، الذي توفي إثر سقوطه من على صهوة حصانه. في عام 1502، أرسل الملك إيمانويل أسطوله إلى ترغة، مع أوامر باحتلال المدينة، لكن السكان والحامية دافعوا عن مدينتهم بشكل جيد، مما

---

[28] الخريطة البحرية لعام 1669. اللفظ الأمازيغي "ترغة" شائع جدًا في شمال إفريقيا، وهو يعني قناة الري.

[29] يطلق عليه فينسندون دومولان اسم نهر تغسة، لكن اسم كركال يرد في الخريطة البحرية للقبطان غوتييه. — والموقع الذي حدده هذا الأخير غير دقيق: فقد وضع وادي كركال خطأً بين جزيرة باديس ومسطاسة.

[30] خريطة أفريقيا تحت الحكم الروماني، أعدها الكابتن ناو دو شانلوي، رئيس أركان الحرب، عام 1864، استناداً إلى أعمال فريديريك لاكروا.

أجبر البرتغاليين على التخلي عن مغامرتهم. أخيرًا، في عام 1517، قام نفس الملك بتجهيز أسطول جديد مكون من 60 سفينة، مع عدد كبير من قوات المشاة والفرسان، وكلف دون دييغو دي سيكويرا بالاستيلاء على ترغة. كان عليه أن يضم قواته إلى قوات دون بيدرو دي مينيسيس، حاكم سبتة. وقد خرج الاثنان من هذه الأخيرة وتوجهوا إلى ترغة، ولكن في الطريق نشأ خلاف بينهما: فقد ادعى سيكويرا أن قيادة الحملة تعود له، ورفض مينيسيس الاعتراف به كقائد. وعاد الجيش إلى سبتة دون أن يحقق أي شيء.

مارمول، الذي لا يتحدث عن هذه الحملات البرتغالية المختلفة، يخبرنا أنه في عام 1533، قام د. ألفار دي بازان، قائد أسطول السفن الإسبانية، بنهب ترغة بأمر من الإمبراطور كارلوس الخامس. في عام 1568، حاول د. خوان النمساوي الاستيلاء عليها أيضًا، لكنه لم ينجح[31]. قبل ذلك ببضع سنوات، كان السلطان عبد الله العلوي قد أمر بترميم التحصينات: "في أعلى المدينة، من جهة الجنوب، تم بناء قلعة، حيث كانت تتمركز حامية قوية مزودة بـ 50 قطعة مدفعية و4 قاذفات حجارة و46 قطعة مدفعية صغيرة أو البنادق ذات الحجم الكبير.

الفقرة العشرين

بين نهر الحَوَر ورأس تيطاوين، تشير خرائط فينسندون دومولان وخرائط رينو وبودوان إلى عدة نتوءات. أبرز رأس هو الذي يحمل اسم رأس مازاري، ونعتقد أن هذا الرأس هو نفسه الذي تشير إليه خرائط فيسكونتي وفيرير بعد نهر شيرش ويطلقون عليه اسم نيتاغورا أو نيتغالا[32]. يوجد مرسى صغير خلف الرأس حيث يمكن لسفن الملاحة الساحلية أن تجد ملاذاً مؤقتاً. وفقًا لغرابرغ، فإن رأس مازاري هو Aquila Minor في مسالك أنطونيوس[33].

الفقرة الحادية والعشرون

ثم نجد طرف أنولي، رأس تيطاوين أو رأس تطوان عند الجغرافيين المعاصرين، وأكويلا ماجور عند الرومان. لا تشير الخرائط القديمة إلا إلى الرأس، دون الإشارة إلى المدينة ومصب النهر. لا يمكن تفسير هذا الإغفال من قبل الخرائطيين في العصر الوسيط إلا بانحسار أهمية تطوان في تلك الفترة كمركز تجاري[34].

---

[31] هذه المعلومة قدمها لنا سواريز مونتانيس؛ لكنه مخطئ عندما يضيف أن ترغة لم يتم احتلالها ونهبها من قبل المسيحيين. (Targa nunca ganado de cristianos ni saqueado dellos).

[32] كتب باتيستا أغنيسي Notegal، وخريطة مكتبة بينيلي Netigara

[33] كما لاحظ Renou بحق، فإن الساحل بأكمله، من وادي ملوية إلى سبتة، غير معروف جيدًا، كما أن الجغرافيا القديمة غير مؤكدة أيضًا. توفر مسالك البكري والإدريسي البحرية بعض المؤشرات. وهناك إشارات أخرى في الخرائط البحرية القديمة وفي مارمول، لكنها غير متطابقة. حتى الخرائط الحديثة غير مكتملة. ومن الطبيعي أنه مع وجود مواد غير كاملة، لا يمكن تحديد مواقع النقاط المختلفة على الساحل إلا بشكل تقريبي.

[34] في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان التجار المسيحيون في منطقة البحر الأبيض المتوسط يترددون على أسواق سبتة فقط على هذا الساحل. وفي وقت لاحق، أصبحت سبتة مستعمرة إسبانية، وحلت تطوان محلها كمركز تجاري بحري للتجارة الداخلية.

نهر تطوان، وادي مارتيل أو مارتين[35]، نهر تامودا الذي ذكره بومبونيوس ميلا وبلينيوس، يشكل عند مصبه خليجين صغيرين، وهما مرسى نيغرو ومرسى إيمو. لا يجب على السفن أن ترسو هناك إلا عندما تكون الرياح غربية؛ وهي الرياح التي تسود عادة على هذا الساحل. ولكن بمجرد أن تبدأ الرياح في التحول نحو الشرق، يجب المغادرة على الفور: مع رياح تلك المنطقة التي لا تهب أبدًا بشكل خفيف، تدخل أمواج عاتية إلى المرسى، ويصبح من الصعب والخطير الحفاظ على استقرار السفن، حيث يتكون القاع بشكل أساسي من رمال متحركة، تتغير مع حركة الأمواج ولا توفر مقاومة كافية. يمكن للفلاليك الصغيرة أن تدخل النهر وتصعد حتى مستوى الجمارك، على بعد ثلاث كيلومترات من مصبه، حيث تقوم بتحميل أو تفريغ بضائعها. على الرغم من أن وادي مارتيل يجف أحيانًا خلال الصيف، إلا أن عمق المياه لا يقل عن مترين على الحاجز الرملي.

حصن مربع، مبني من الحجارة الجيدة ومزود بـ 12 مدفعاً ترتفع فتحات إطلاقها أربعة أمتار عن مستوى الأرض لمنع التسلق، يحمي مدخل النهر. هذا المكان هو محطة استراحة ممتازة حيث يمكن الحصول على المؤن بأسعار معقولة؛ كما توجد فيه مياه جيدة جداً[36]. في عام 1798، كان نيلسون يرابط منذ أكثر من شهر في خليج تطوان، عندما تلقى أمراً بالتوجه إلى مصر[37].

تقع مدينة تطوان على بعد ست كيلومترات من البحر، وهي مبنية على أحد سفوح سلسلة جبال الأطلس (الريف) التي تمتد بموازاة الساحل. يقال إنها مدينة قديمة جداً، لكن لا يُعرف شيء عن تاريخها. يُعتقد أنها خلفت مدينة جاغاث التي ذكرها بطليموس، وهي مدينة مجهولة المكان. ووفقاً لتقرير مارمول، قام أسطول ملك قشتالة، إنريكي الثالث، بتدميرها بالكامل في عام 1400 واستعباد جميع سكانها. وظلت المدينة مهجورة لمدة 90 عاماً، حتى طرد المسلمين من إسبانيا. ثم أعاد الغرناطيين إسكانها، وبعد أن استقروا فيها بشكل راسخ، بدأوا من هناك في الإغارة على حدود سبتة والقصر وطنجة، "محققين نجاحًا كبيرًا في مواجهة البرتغاليين والإسبان، برا وبحرا، لدرجة أنه في غضون سنوات قليلة، بلغ عدد العبيد المسيحيين في تطوان ثلاثة آلاف".

في عام 1520، نصح حاكم سبتة ملك البرتغال إيمانويل ببناء حصن عند مصب النهر: كان ذلك، في رأيه، أفضل وسيلة لوضع حد لغزوات الغرناطيين. وافق الملك على المشروع وأمر بتجهيز ثماني سفن وأسند قيادتها إلى د. بيدرو دي مسكارينياس. وصل هذا الأخير إلى سبتة، وتوجه برفقة سفينتين شراعيتين إلى شاطئ تطوان، وبعد أن استكشف المكان، حدد الموقع الأنسب لبناء الحصن، ثم عاد إلى لشبونة ليقدم تقريرًا إلى الملك عما أنجزه. يبدو أن أموراً أخرى منعت إيمانويل من متابعة هذا المشروع، لأنه لم يعد يرد ذكره في مؤلفات المؤرخين في ذلك الوقت.

بعد الاستيلاء على جزيرة باديس في عام 1564، وصل د. غارسيا دي طوليدو مع أسطوله إلى مصب نهر مارتيل. كان يريد، مثل ملك البرتغال، أن يمنع الغرناطيين من استعمال مرساهم؛ ولكن بما أن الموسم كان قد تأخر كثيراً، اضطر إلى العودة إلى مالقة دون أن يتمكن من القيام بأي شيء. أصدر فيليبي الثاني أوامره بتدمير ميناء تطوان بأي ثمن، فعاد د. ألفار دي بازان في العام التالي، ورغم كل ما بذله القرصان

---

[35] هذا هو الاسم الذي يطلقه السكان على مبنى الجمارك، والذي يستخدمونه عادة للإشارة إلى النهر. يُطلق عليه أيضًا اسم نهر الأنقليس. في عهد البكري، كان يُسمى وادي مهكسة أو وادي راسن. كان سكان تطوان، حسب تقرير الإدريسي، ينتمون إلى قبيلة مهكسة. لا يعرف مارمول أيًا من هذه التسميات ويشير إليه باسم وادي كوس.

[36] Annales maritimes, 1844, t. I. — Ann. hydrogr., t. 10.

[37] G. Jackson, an account of the empire of Morocco, 1811. Revue africaine, 16e année, 02. (MARS 1872)

لمنعه، قام بسد النهر بواسطة قوارب كبيرة وفرقاطتين محملتين بالحجارة جلبها من جبل طارق. نجحت العملية، لكن تأثيرها لم يدم طويلاً. بعد رحيل الإسبان، تمكن السكان من سحب الفرقاطات، ثم فتح التيار لاحقاً قناة أخرى من الجانب الشمالي: "من خلال نقل المجاذيف من جانب إلى آخر،" كما يقول مارمول، "كان بإمكان قويدس أن يمر بسهولة."

استعاد الغرناطيون حرية التصرف في مرساهم، فاستأنفوا نشاطهم بقوة على سواحل البرتغال والأندلس. وكانوا قد رفضوا حتى ذلك الحين الاعتراف بسلطة ملك فاس والمغرب، ولكن في عام 1567، اضطروا إلى الخضوع؛ وفي أعقاب الخلافات التي اندلعت بين السكان، استولى السلطان عبد الله بن إسماعيل العلوي على المدينة. لم يشكل فقدان حريتها سبباً في انهيار تطوان؛ بل على العكس، زادت أهميتها بدلاً من أن تتضاءل. يخبرنا D'Avity أنه في أوائل القرن السابع عشر "كانت مدينة المدجنين[38]، المحاطة بأسوار قوية مع قلعة تشرف عليها، تضم 800 منزل من أفضل المنازل في إفريقيا، وكان قراصنتها من أفضل قراصنة البحر وأشجعهم، لدرجة أنهم كانوا يتفاخرون بقدرتهم على صد كل المسيحيين". كانت البحرية في تطوان تتألف آنذاك من 15 أو 20 سفينة شراعية وفرقاطة من 8 إلى 12 مجذافًا، منها خمس أو ست سفن كانت تجوب كل شهر مدخل مضيق جبل طارق.

في الوقت الذي كان فيه سكان تطوان يخوضون حربًا شرسة ضد الإسبان والبرتغاليين، أعدائهم التقليديين، كانوا يفتحون أسواق مدينتهم أمام الدول الأوروبية الأخرى. كان الإنجليز والهولنديون والجنويون والبندقيون يقيمون معهم علاقات تجارية وثيقة. كان الهولنديون على وجه الخصوص محل تقدير في البلاد، بسبب الحرب التي كانوا يخوضونها آنذاك ضد الإسبان. اليوم، لم يعد لتطوان قراصنة، ولن يكون من الحكمة أن تحاول استئناف غزواتها البحرية القديمة؛ لكنها ظلت المركز التجاري الرئيسي للأقاليم المتوسطية في إمبراطورية المغرب.

الفقرة الثانية والعشرون

نستعير الوصف التالي لمدينة تطوان من مذكرة غير منشورة للقبطان في هيئة الأركان بورسل، الذي كُلف في عام 1845 بمهمة في المغرب[39].

"تتخذ تطوان شكل مضلع غير منتظم، ويحيط به من جميع الجهات سور مسنن، مع أبراج مستديرة أو مربعة بارزة. يتراوح ارتفاع السور بين ثلاثة وأربعة أمتار، ولا يقل سمكه عن قدمين. على الجوانب المختلفة توجد ثلاثة حصون مسلحة بـ 12 إلى 18 مدفعًا؛ وفي الجزء الأعلى من المدينة، إلى الغرب، توجد القصبة مع بطارية مدافعها وسورها الخاص، وبرج مبني خارج الأسوار يحمي البساتين على الجانب نفسه، ويكمل نظام الدفاع في تطوان. يتم صيانة هذه التحصينات بعناية بسبب الجوار والطابع الجريء للقبائل الأمازيغية التي تسكن الجبال التي تحيط بالمدينة. لكن هذه الحماية الفعالة ضد سكان الجبال المغاربة

[38] المدجنون؛ كان هذا هو الاسم الذي أطلقه سكان شمال إفريقيا على المسلمين المقيمين في مملكتي قشتالة وغرناطة بعد سقوط الأندلس. أما سكان مملكة بلنسية فقد أطلق عليهم اسم سكان الثغور.

[39] أرشيف الأمانة العامة للحكومة، السياسة، C. XX، رقم 3، — النقيب بورسيه هو اليوم لواء.

ستكون غير كافية تمامًا ضد القوات الأوروبية المزودة بالمدافع: فبوضع بعض قطع المدفعية على الهضبة التي تطل على القصبة من الغرب، يمكن إخماد نيران المكان بسرعة والسيطرة عليه بسهولة.

"بفضل موقعها المقابل لجبل طارق، وسكانها المسالمين والمجتهدين، وصناعتها وخصوبة تربتها، وأخيراً بفضل جوارها للعديد من القبائل التي تحيط بها من الشرق والجنوب والغرب، تعد تطوان واحدة من أكبر المدن التجارية في المغرب. وهي تقع على البحر الأبيض المتوسط، وتعد مستودعًا للمدن المركزية الكبرى، مثل فاس ومكناس وحتى مراكش. ويحتكر الإنجليز نوعًا ما تجارة الاستيراد فيها: فهي البوابة الرئيسية التي يوزعون عبرها منتجاتهم في المناطق الداخلية[40]. القطن والأقمشة والأدوات المعدنية والزجاج والشاي والسكر والتوابل هي أهم السلع المستوردة من إنجلترا. وترسل فرنسا إلى المدينة الأقمشة والحديد والصلب والحرير والمخمل الذهبي والفضي الذي يستخدمه اليهود وبعض المستحضرات الصيدلانية. وتستورد إنجلترا الحبوب (الشعير والقمح) والصمغ والعفص والشمع والصوف المنظف والجلود المعدة والجلود المدبوغة والحصير والسجاد وبعض السلع التزيينية الأخرى المصنوعة في فاس ومكناس وتطوان. وتزود هذه المدينة الأخيرة حامية جبل طارق بالأبقار والأغنام والفواكه الممتازة. وتستورد فرنسا منها الصوف الخام والشمع الأصفر والعلقات والعسل والجلود غير المدبوغة واللوز والزبيب. واحتكر السلطان تجارة الحديد والعفص والعلق، الذي يتم تصديره بكميات كبيرة إلى أوروبا، ولا سيما إلى مدينة مرسيليا. ويبلغ العائد السنوي من إيجار العفص والعلق وحده أكثر من 600,000 فرنك لخزينة السلطان[41].

"تشتهر منطقة تطوان بخصوبتها وغنى نباتاتها في جميع أنحاء المغرب. حول المدينة وحتى المنحدرات الأولى للجبال، لا توجد سوى حدائق جميلة وبساتين برتقال رائعة وأشجار فواكه من جميع الأنواع، تتخللها مياه وفيرة ومنعشة تحت قباب خضراء. محصول الفاكهة وفير؛ ويتم تصدير معظمه إلى سبتة وجبل طارق. ويشتري اليهود العنب لصنع النبيذ[42].

" تنتج تطوان كمية كبيرة من البنادق والخناجر المعروفة بالريفية، والأحذية، والمنتجات المصنوعة من الخيزران، والجلود، والأثاث الملون[43]، والفخار المطلي الذي يحظى بسمعة طيبة في البلاد."

وفقًا للقبطان بورسيل، يبلغ عدد سكان تطوان ما بين 30 و35 ألف نسمة، لكنه مخطئ. فعددهم لا يتجاوز 15 أو 20 ألفًا. ويرى رينو أن عددهم لا يتجاوز 12 ألف نسمة، من الموريسكيين والأمازيغ واليهود. ويشكل اليهود ثلث السكان.

---

[40] في الماضي، كان القناصل الأوروبيون يقيمون في تطوان. في عام 1770، أمرهم السلطان محمد بن عبد الله العلوي بالانتقال إلى طنجة. اتُخذ هذا الإجراء عقب وفاة امرأة مغربية مسنة قتلها إنجليزي عن غير قصد بطلقة نارية. اليوم، لا يمثل القوى الأوروبية في تطوان سوى موظفون قنصليون، يتم اختيارهم من بين اليهود المحليين. إنجلترا وحدها تحتفظ بنائب قنصل من جنسيتها هناك.

[41] يبلغ إجمالي حجم التجارة في تطوان ما بين 5 و6 ملايين فرنك.

[42] وفقًا لتقرير ليون الافريقي ومارمول، فإن الأمازيغ في جبال الريف يتناولون كميات كبيرة من النبيذ "الأبيض والوردي على حد سواء". حتى أن الشرفاء أنفسهم يشربونه سراً حتى الثمالة.

[43] "يتميز صانعو الأثاث في تطوان بموهبتهم في صنع وطلاء الرفوف وعلاقات المعاطف والطاولات المنخفضة والمضلعة لتناول الشاي. يثبتون على الخشب أوراق الذهب والألوان الزاهية التي لا تبهت. تشبه الزخارف والأقواس والقوالب الموجودة على هذه الأثاثات في بعض الأحيان أفضل نماذج العمارة المغاربية." — L. Godard، Histoire et description du Maroc (تاريخ ووصف المغرب)؛ ص. 199.

الفقرة الثالثة والعشرون

من المعروف أن اليهود، على الرغم من الازدراء والإهانات التي يتعرضون لها، هم كثيرون في إمبراطورية المغرب، ويقطنون بشكل رئيسي في المدن[44] وينحدر معظمهم من اليهود الذين طردوا من أوروبا في حقب مختلفة من العصر الوسيط. أما اليهود في تطوان وطنجة فهم جميعهم تقريبًا من أصل إسباني، ويطلقون على أنفسهم اسم أحفاد المنفيين من قشتالة؛ بل إنهم يخصصون كل عام عدة أيام للحداد على ذكرى الاضطهادات التي تعرض لها آباؤهم.

كما يقول شارل ديديي، "يتم التسامح مع اليهود في المغرب أكثر من قبولهم"؛ لكن هذا التسامح يكلفهم ثمناً باهظاً. ويُعتبر شيئًا ضروريًا ولكنه مزعج، يتم التعامل معهم على هذا الأساس. فهم مثقلون بالضرائب. إذ لا يتعين عليهم دفع ضريبة سنوية باهظة فحسب، بل عليهم أيضًا دفع ضرائب استثنائية على كل ما يفعلونه ويبيعونه. يُحظر عليهم ارتداء الأحذية، "باستثناء القلة القليلة المقربة من السلطان وكبار المسؤولين. " أما الباقون فلا يملكون سوى أحذية من الخيزران يضطرون إلى خلعها عشرين مرة في اليوم عند مرورهم أمام المساجد والزوايا وأضرحة الأولياء؛ وإذا لم يفعلوا ذلك، فإنهم يتعرضون للضرب بالعصي. يرتدون ملابس سوداء أو بنية أو أرجوانية، وهي ألوان يحتقرها المغاربة؛ ويحظر عليهم ارتداء أي ملابس بيضاء. عندما يخرجون، يرتدون رداء بلا أكمام، "يشبه رداء خدام الكنيسة". يستخدمون هذا الرداء كمعطف ويرتدونه فوق سترتهم وسراويلهم الإسبانية الطويلة التي لا تصل إلا إلى منتصف الساق. قبعاتهم عادة ما تكون سوداء، مع زر صغير في الأعلى؛ وهي تختلف عن قبعات المغاربة التي تكون حمراء، بدون أزرار وأطول. ويربطون شريطًا من نفس لون القبعة على رؤوسهم، ولكن يجب أن يكون مربوطًا بعقدة واحدة فقط.

لا يمكنهم مغادرة البلاد دون إذن خاص من السلطان، ولا زراعة الأرض، ولا امتلاك أراضٍ ومنازل خارج الحي الذي يعيشون فيه، ولا المزايدة في السوق على مسلم من أجل شراء الطعام. يجب عليهم حمل موتاهم على عجل إلى المقبرة وتوخي الحذر من مصادفة موكب جنازة مسلم. عندما يشرب مسلم من نافورة، لا يجوز لليهودي الاقتراب منه، وسيُعاقب بشدة إذا تجرأ على الجلوس بجانبه. لا يجوز لهم قراءة اللغة العربية أو كتابتها، لأنهم لا يستحقون سماع القرآن الكريم. في داخل المدينة، يجب أن يتنقلوا دائماً سيراً على الأقدام، ولكن يمكنهم ركوب الحمير أو البغال عندما يذهبون إلى الأرياف. أما بالنسبة لاستخدام الخيل، فهذا ممنوع عليهم تماماً: لأن هذا الحيوان أنبل من أن يركبه اليهود. كما يُجبر اليهود على دفن جثث المجرمين وشنق المسلمين المحكوم عليهم بالإعدام. وتحت أي ذريعة، تُجلد نساؤهم في الأماكن العامة على يد عريفة، وهي مسلمة مسنة مكلفة خصيصًا بهذه المهمة. يُحشرون في حي منفصل، يُسمى الملاح، أي الأرض المالحة والملعونة، وتُغلق أبوابه عليهم بعناية في الليل وأيام الأعياد الإسلامية، ويعيشون تحت سلطة شيخ يهودي، مكلف بتطبيق العدالة عليهم، وتوزيع الضرائب بينهم وتحصيلها، وكذلك الغرامات. هذا الشيخ الذي ينتخبونه يخضع لسلطة قائد يعينه السلطان.

عندما يعبر يهودي الشارع، يكون دائمًا متيقظًا وينصت إلى كل صوت. لا يتكلم، بل يهمس كسجين يخشى أن يوقظ جلاديه النائمين، ويتسلل كالظل بمحاذاة الجدران وينحرف عند كل زاوية كاللص الذي يطارده

[44] تقطن بعض المجموعات اليهودية في جبال الأطلس (الريف): ويبدو أنها تعيش هناك في وئام تام مع الأمازيغ الذين لا يضطهدونها كما يفعل المورسكيون في المدن.

أحدهم. غالبًا ما يحمل حذاءه في يده، حتى لا يصدر صوتًا، لأن لا شيء يخيفه أكثر من لفت الانتباه؛ يود أن يمشي على سحابة ويصبح غير مرئي. إذا نظر إليه أحد، يضاعف خطواته؛ وإذا توقف أحد، يهرب. إنه يشبه الأرنب والذئب في آن واحد. " إذا اقترب منه مغربي ليعامله معاملة سيئة، يسارع إلى ذكر اسم السلطان. هذه العملية، إذا تمت في الوقت المناسب، تصنع المعجزات «لأن المغاربة يخشون سلطانهم لدرجة أن مجرد نطق اسمه يمنعهم من الضرب: تبدو أذرعهم المرفوعة وكأنها تفقد كل قوتها وتبقى مجمدة. " ولا تنجح هذه الحيلة مع اليهود إلا بوجود شهود. أما عندما لا يكون هناك ما يخشونه، فلا يتردد المسلمون في ضربهم ضربًا مبرحًا[45]. يروي مسافر إنجليزي عن اعتقاد غريب لدى المغاربة تجاه اليهود. يقول: "عندما يحتاج المسلمون إلى المطر ويصلون طويلاً دون جدوى، فإنهم يجعلون اليهود يقومون بهذا العمل، مدعين أن الله إذا رفض دعاء المؤمنين، فإنه سيستجيب لدعاء اليهود، للتخلص من رائحتهم الكريهة[46]."

اليهود هم الذين يتولون معظم التجارة في البلاد. لا يشتري المغربي أي بضائع أجنبية ما لم يكن برفقته يهودي، ولا يتعامل التجار المسيحيون إلا مع سماسرة من هذه الطائفة. وهم يخدعون بعضهم بعضًا؛ مهما كان المسلم مخادعًا وماكرًا، فإن اليهودي دائمًا ما ينجح في التحايل عليه[47]. تروي إحدى الروايات القديمة حكاية غريبة عن هذا الموضوع. اشترى أحد الرهبان قطعة قماش، وأعطاها لخياط يهودي ليصنع منها سروالًا. ولأنه كان يعرف اليهود جيدًا ولم يرغب في أن يكون ضحية للسرقة، أراد أن يشرف بنفسه على العملية برفقة اثنين من أصدقائه من التجار الفرنسيين. قام الخياط بقص السروال في حضورهم، ثم أعاد قطعة القماش إلى الراهب. كان هذا الأخير والتاجران مقتنعين بأن الأمر تم كما ينبغي؛ ولكن بعد بضعة أيام، عندما علموا أن الخياط كان يتباهى بأنه قصّ سروالين، أحدهما له والآخر للقسيس، سارعوا إلى قياس ما تبقى من قطعة القماش وأدركوا أن اليهودي الماكر قد خدعهم دون خجل.

على الرغم من كل ما يتحلون به من اجتهاد وذكاء تجاري، فإن اليهود يجدون عناءً كبيراً لتأمين معيشتهم. فهم جميعاً فقراء، باستثناء قلة قليلة منهم ترك لهم القواد إدارة أموالهم، إذ «لا يهتمون بجمع الثروة ولا يفهمون في هذه الأمور الدقيقة».

[45] مارمول، المجلد الثاني، الجزء الرابع ــــ تقرير عن ثلاث رحلات إلى مملكة المغرب في أعوام 1704 و1708 و1712، ص 41 وما يليها. ــــ. علي بك العباسي، رحلات في إفريقيا وآسيا، المجلد الأول ــــ غرابرغ دي هيمسو، مرآة إمبراطورية المغرب، ص. 88-89. ــــ. ش. ديدييه، نزهة في المغرب، ص. 144 وما يليها. ــــ ليون غودار، ص. 16-17.

[46] Hist, of the captivity of Pellow, p. 257. ــــ اليهود في طنجة يعانون أقل قليلاً من اليهود في المدن الأخرى. فهم لا يتعرضون لبعض الإهانات. ولا شك أنهم مدينون بهذه التساهلات الطفيفة التي تخفف من أوضاعهم المزرية لوجود القناصل الأوروبيين، الذين يقدمون لهم خدمات جليلة.

[47] لدى اليهود المثل الذي يقول: "*Con los Moros plomo o plata* ــــ مع المسلمين إما الرصاص أو الفضة". وبما أنه ليس لديهم رصاص ليطلقوه على رؤوسهم، فإنهم يقدمون لهم الفضة؛ لكنهم يعرفون جيداً كيف يستعيدون من طغاتهم، بالمكر، ما انتزعوه منهم بالقوة.

الفقرة الرابعة عشرة

بين نهر تطوان ورأس نيغرو، يظهر ساحل محاطاً بجروف شديدة الانحدار مع عدة خلجان صغيرة. يمكن للسفن الشراعية وغيرها من السفن الساحلية أن ترسو في أي مكان عند الضرورة، مع العمق الذي يناسبها. المكان محمي من الرياح الشمالية الغربية، ولكن يجب ألا تفاجئك الرياح القادمة من عرض البحر[48].

في الوثائق البحرية التي تعود إلى العصر الوسيط، يُطلق على رأس نيغرو اسم كافو غوميرا (رأس غمارة). تضعه خريطة فيسكونتي بين ميتاغورا وطرف أولوني؛ لكن جميع الخرائط البحرية الأخرى تحدد موقعه بدقة. رأس نيغرو أو الرأس الأسود، كما تذكر بعض خرائط القرن السابع عشر، هو رأس متوسط الارتفاع، بارز للغاية ومحاط بجزر صغيرة. يمكن العثور على ملاذ مؤقت خلف بعض هذه الصخور. تشير خريطة الملاحة البحرية لعام 1669 بشكل خاص إلى أن الطرف الجنوبي للرأس يضم " مرسى شجرة التين، مع وديان صغيرة أخرى، حيث كانت السفن ترسو أحيانًا".

يعتقد منير أن رأس نيجرو هو برومونتوريوم فابي الذي ذكره بطليموس. ويوافق غرابرغ وغودار على هذه المطابقة. ونعتقد أنه هو نفسه المكان الذي ذكره الإدريسي باسم أنزلان في مسالكه البحرية.[49]

[48] Baudin, Manuel du pilote de la Méditerranée.

[49] في الأطلس الكتالوني، نجد كلمة ريف مكتوبة بعد كلمة غمارة. وهو الدليل البحري القديم الوحيد الذي يذكر اسم الإقليم.

الفصل الثاني

أرض العبور

الفقرة الأولى

من رأس نيجرو إلى سبتة، يتميز الساحل بمنحدرات شاهقة، مع بعض الأبراج المهدمة المتناثرة هنا وهناك، وخلجان ضيقة شكلتها الأنهار الصغيرة. أحد هذه الأنهار، نهر كاستييخو (واد جْدِيدْ حالياً)، الذي يصب في البحر على بعد بضع كيلومترات جنوب سبتة، مذكور في خرائط جنوة التي وضعها فيسكونتي وباتيستا.

في القرون الأولى من الحكم الروماني، لم تكن هناك أي مدينة أو بلدة في محيط جبل أبيلا[50]؛ ولكن عندما أصبحت العلاقات السياسية والتجارية مع الساحل المقابل أكثر نشاطًا، تم التفكير في الاستفادة من المرسى الصغير الذي شكله الرأس البحري والموقع المتميز. تم بناء قلعة على البرزخ الضيق الذي يربط جبل أبيلا بالقارة، وأطلق عليها اسم Septem fratres نسبة إلى الجبال السبعة التي تحيط بها وتحميها[51]. عندما انتقل الوندال من مقاطعة بَاطِقَة (هسبانيا بايتيكا) إلى موريتانيا الطنجية[52]، استولوا على قلعة الإخوة السبعة ودمروها. بعد أن استعاد الإمبراطور جستينيان أفريقيا، أعاد بناء أسوار هذه القلعة المهمة. على مر القرون، تم اختصار الاسم. تم حذف الكلمة الأخيرة وأطلق عليها اسم Septem أو Septiense Castellum؛ ثم، مع نسيان أصل الاسم الأصلي، أصبح اسمها في النهاية Septum و Septa[53].

وهي تظهر تحت هذا الاسم الأخير في الخرائط البحرية القديمة. أما اليوم، فيكتب اسمها Ceuta[54].

الفقرة الثانية

حسب الحوليات العربية التي تعود إلى العصر الوسيط، يُطلق على سبتة وطنجة، الواقعتين على طرفي مضيق جبل طارق، اسم مراسي بحر المجاز. وكان حكم هاتين المدينتين، مع أراضيهما، اللتين كانتا تعتبران أهم قاعدتين عسكريتين في الإمبراطورية بأكملها، يُعهد به دائماً إلى أمراء من عائلة السلطان[55].

---

[50] جبل آشو (حسب الإسبان) أو رأس أفريقيا على الخرائط الحديثة.

[51] الجبال عالية، وهي مرتبة بشكل متواصل وكأنها مصممة هكذا، وتسمى بالأخوة بسبب عددها السبعة وتشابهها. (بومبونيوس ميلا، L. I، G. 5).
—— مسالك انطونيوس هو الوثيقة القديمة الوحيدة التي تذكر محطة الأخوة السبعة (ad Septem Fratres).

[52] لم يمر الوندال عبر موريتانية الطنجية في طريقهم الى نوميديا وإفريقية بل عبروا البحر المتوسط مباشرة الى وجهتهم النهائية.

[53] Mannert, Géographie ancienne des Etats barbaresques,.L. III, C. 6.

[54] سبتة باللغة العربية.

[55] ابن خلدون، كتاب العبر، المجلد الثاني.

كانت سبتة آنذاك مركزًا تجاريًا رائدًا وأغنى مستودع للبضائع في الأقاليم الشمالية للمغرب. تذكر روايات تلك الحقبة براعة حرفيي سبتة الذين برعوا بشكل خاص في صياغة المعادن. كانت مصنوعاتهم النحاسية مطلوبة في إيطاليا. يقول ليون الأفريقي إنها كانت تضاهي تلك المصنوعة في دمشق؛ على الأقل كانت تباع على أنها كذلك في جنوة والبندقية. كما كانت سبتة تصنع سجادًا رائعًا وأحزمة مطرزة وكَبُّوط[56]، أو قمصان صوفية باهظة الثمن، كان التجار الأوروبيون يشترونها.

في القرن الثاني عشر، كان سكان بيزا وجنوة يقيمون علاقات تجارية نشطة للغاية مع سبتة. وكان المركز الذي أسسوه هناك هو الأكبر من بين جميع المراكز التي امتلكوها في موريتانيا ونوميديا. حتى أن جمهورية جنوة عقدت تحالفًا في سنة 1234 مع السلطان الموحدي عبد الواحد الرشيد ضد الصليبيين الإسبان الذين كانوا يهددون سبتة. أرسلت إيطاليا ثمانية وعشرين سفينة حربية بقيادة لانفرانكو سبينولا لنجدة المدينة. من المحتمل أن الجنويين لم ينضموا إلى صفوف المسلمين ضد المسيحيين دون بعض التردد، على الرغم من أن ضمير التجار في ذلك الوقت كان، كما يقول سانوتو، مرتاحًا جدًا بشأن هذا الموضوع. ويبدو أنهم لم يقرروا الدخول في هذا التحالف إلا بعد أن تعرضوا هم أنفسهم لأول هجوم من قبل الصليبيين.

تم الاتفاق بين الجمهورية والسلطان على أن يدفع الأخير نصف تكاليف الحملة. ونتيجة لظروف أغفل المؤرخون ذكرها، لم يهاجم الصليبيون الإسبان سبتة. ولما رأى السلطان أن الخطر قد زال، وبما أنه لم يكن يملك المال على الأرجح، بحث عن حيل للتملص من دفع ما وعد به. وأدى ذلك إلى قطع العلاقات بين البلدين. نُهبت محلات التجار وأُحرقت، لكن أسطولًا جنويًا جاء ليحاصر سبتة: كان يتألف، إذا صدقنا كافارو، من 70 سفينة كبيرة و20 قادسا و30 سفينة أصغر. يقول روض القرطاس: «هاجم المسيحيون المدينة ليل نهار بالمنجنيق وآلات حربية أخرى، ثم انسحبوا بعد حصار طويل وصارم. في العام التالي، تم إبرام السلام، لكن السلطان اضطر إلى دفع 400000 دينار إلى الجنويين[57].

يخبرنا فولييتا أنه في عام 1267، قامت جنوة بتوزيع وكلائها في الخارج تحت سلطة قنصليتين عامتين. إحداهما، ومقرها في سبتة، كانت تضم قنصليات بلاد المغرب والأندلس؛ والأخرى، ومقرها في صور، كانت تشرف على قنصليات سوريا ومصر[58]. كان البندقيون، أعداء ومنافسو الجنويين، يفضلون زيارة طنجة على سبتة. في سنة 1227، استقر الكتالونيون في هذه المدينة الأخيرة[59]. كان سكان مرسيليا يترددون أيضاً على أسواق سبتة، حيث كان لديهم، كما في عنابة، قنصل ومستودع للبضائع. كانوا ينقلون إليها أقمشة من مدينة رانس الفرنسية، والنسيج الفسطاطي، وملاءات، وأدوات حديدية، ويجلبون منها خيولاً، وشمعاً، ومرجاناً، وصوفاً[60].

في عام 1415، استولى البرتغاليون على سبتة. يقول مارمول: "كان للملك جواو الأول خمسة أبناء. وكان الثلاثة الأكبر منهم في سنّ حمل السلاح، فقرر أن يمنحهم لقب الفرسان بنفسه، ولهذا الغرض، دعا جميع النبلاء إلى اجتماع رسمي في لشبونة. استغرب أمين الخزينة من ضخامة النفقات التي كان الملك ينوي صرفها، فأخبره أنه بدلاً من إنفاق كل هذا المال على المبارزات وغيرها من الاحتفالات، سيكون الاستيلاء

[56] الجلباب

[57] Caffaro، Ann. Genuens، ap. Muratori، Rerum italicarum scriplores، T. VI p. 471. — روض القرطاس.

[58] Uberto Foglieta, hist. Gönnens, L. V, p. 96.

[59] Capmany, Comercio de Barcelona, T. I, p. 80.

[60] Statuta Massiliæ، L. I، ap. Pardessus، lois maritimes، T. IV. — كان صيد المرجان يتم على الأرجح في محيط Isla del peregil (جزيرة تورا)، الواقعة على بعد 8 أو 10 كيلومترات غرب سبتة. وتسمى Isla del Coral (جزيرة المرجان) في بعض الخرائط القديمة. لا تذكرها خرائط الملاحة البحرية في القرن الرابع عشر، مما يشير إلى أن صيد المرجان في سبتة كان قد توقف بالكامل في تلك الحقبة.

على إحدى المدن المغربية أقل تكلفة بكثير، وأنه من الأفضل جعل الأبناء فرسانًا في ساحة المعركة عوضًا عن قاعات البلاط الملكي. أعجب الملك ومجلسه بهذا الرأي، وتقرر غزو سبتة. قام جواو ببناء سفن، واشترى أخرى من قشتالة وفلاندر (أو إفلندريش) وإنجلترا. رست سفينتان في سبتة بحجة التزود بالمؤن، وقام طاقماهما باستطلاع المكان "من الداخل والخارج" ورسمت خريطة للتحصينات دون أن يثار انتباه أحد. في الوقت نفسه، كان جيش كبير يتجمع في لشبونة حيث توافد عدد كبير من الفرسان الإنجليز والفرنسيين، بعد أن علموا أن ملك البرتغال كان يستعد لشن حملة ضد "الكفار".

في 14 غشت، عشية عيد الصعود (المسيحي)، ظهر الأسطول البرتغالي المكون من 120 سفينة ويحمل 20000 رجل أمام سبتة. قام الملك، بعد أن جذب المغاربة نحو القلعة بهجوم وهمي، باقتحام المرسى وإنزال قواته. وفي اليوم نفسه، تم الاستيلاء على المكان بعد معركة شرسة في الشوارع وأمام باب فاس، حيث كان المغاربة قد تحصنوا. قُتل الجميع أو أُسروا، باستثناء قلة هربوا إلى الجبال مع الحاكم صلاح بن صلاح. نُهبت المنازل "التي عُثر فيها على العشاء جاهزًا"، وكان الغنيمة كبيرة. احتفظ التاريخ بأسماء أول جنديين دخلا سبتة: كانا يُدعيان ألبرغيريا وكورتيريال.

في اليوم التالي، قام الملك جواو بمنح أبنائه الثلاثة لقب الفرسان في المسجد الكبير الذي تم تحويله إلى كنيسة. وفي هذه المناسبة، ألقى أحد الرهبان الذين رافقوا الجيش خطبة مستوحاة من عبارة قيصر: Veni, vidi et Deus vicit (جئت، رأيت، وانتصر الله.). في 2 سبتمبر، بعد أن وضع خطة لبناء تحصينات جديدة ومعسكر واسع محصن، مخصص لـ 6000 جندي مشاة و2500 فارس، الذين كانوا سيشكلون حامية سبتة، أبحر ملك البرتغال عائداً إلى لشبونة[61].

في عام 1418، هاجم سلطان فاس، بمساعدة أمير غرناطة، سبتة براً وبحراً؛ لكن الأمير إنريكي، وهو نفس الأمير الذي كان في ذلك الوقت يعطي دفعة قوية للبعثات البحرية إلى إفريقيا[62]، اندفع إلى المكان وصد جميع هجماته وأجبره على التخلي عن مغامرته.

الفقرة الرابعة

عندما انتقل تاج البرتغال في عام 1580 إلى الملك فيليبي الثاني، احتل الإسبان سبتة، وكذلك طنجة ومازغان. عندما حدث الانفصال في عام 1640، كما هو معروف، عادت هاتان المستعمرتان إلى البرتغال؛ لكن سبتة، التي كان يحكمها قشتالي، هو الكونت أسانتار، والتي لم تكن على علم بالثورة، بقيت تابعة لإسبانيا، وتم التنازل عنها نهائياً بموجب معاهدة عام 1668[63]. تحت الحكم البرتغالي، حافظت سبتة

[61] تم تعيين د. بيدرو دي مينيسيس قائداً لسبتة. يروى أن هذا النبيل كان يحمل غصن زيتون بري في يده عندما سلمه الملك جان قيادة المكان، فرد قائلاً: "سأحمل على عاتقي، بهذه العصا، إخضاع كل الحشود المغربية". ويقول القس ليون غودار إن غصن الزيتون هذا، الذي تم الاحتفاظ به منذ ذلك الحين كرمز للقيادة، لا يزال موجودًا حتى اليوم في سبتة في كنيسة سيدة إفريقيا، شفيعة المدينة.

[62] كان الأمير د. إنريكي، المتحمس لتقدم الملاحة البحرية، لا يفكر إلا في سبل توسيع نطاق علم الجغرافيا. تخلى عن الزواج، وبنى لنفسه قلعة على نتوء ساغريش، في أقصى جنوب المملكة، وعاش هناك، محاطًا بالعلماء والبحارة، يراقب البحر ويهتم بالرياضيات. بصفته كبير أساقفة فرسان المسيح، كان يحصل على عائدات كبيرة، مما سمح له بمكافأة الملاحين الذين كرسوا أنفسهم لاستكشاف السواحل الأفريقية.

[63] جاء نائب حاكم جبل طارق لتلقي قسم الولاء من السكان. وبهذه المناسبة، حصلت المدينة على امتيازات كبيرة.

على بعض من بريقها؛ ولكن منذ أن تم توحيد مملكتي شبه الجزيرة الإيبيرية، بدأت في الاضمحلال تدريجياً.

في عام 1693، أراد السلطان إسماعيل، الذي كان قد استرد للتو المعمورة والعرائش من الإسبان واستعاد طنجة من الإنجليز، الاستيلاء على سبتة أيضًا. وقد سبق هجوم السلطان رسالة غريبة للغاية، موجهة في 23 غشت 1692 إلى حاكم هذه المدينة، د. فرانسيسكو فارونا[64]. وكانت الرسالة على النحو التالي:

"صاحب الجلالة، السلطان الشريف مولاي إسماعيل، عبد الله وحامي شريعته.

"أحيي حاكم سبتة، وأعلمه أنني قد كتبت إليه وأبلغته أنني قد وبخت القائد علي بن عبد الله، لأنه أهمل إزعاج سبتة، التي هي في الواقع ذات أهمية ضئيلة. وقد جاءني القائد في الأعياد الأخيرة، كما هو ملتزم بذلك كل عام، وتحدثنا معاً عن هذه المسألة، وأمرته بأن يحاصر سبتة ويهاجمها بقوة. كان القائد يفضل الانتظار، لكنني ذكّرته بالمثل الذي يردده سكان تطوان، الذين يقولون إن تطوان بدون سبتة لا تساوي شيئًا[65]. فرد علي بن عبد الله بأنه مستعد لتنفيذ أوامري، وأنه سيتخذ الترتيبات اللازمة لمهاجمة المدينة، وسيواصل ذلك حتى يستولي عليها ويعيد توطينها بالمغاربة. وطلب مني لهذا الغرض مدفعين كبيرين من مدافع العرائش، وعشرة مدافع أخرى موجودة في المغرب. أجبته بأنني سأعطيه كل ما يحتاجه من مدفعية. ونصحتُه بأن يبدأ استعداداته على الفور، وأن يتقدم إلى سبتة بمجرد انتهاء موجة الحر. أقول لكم كل هذه الأشياء لكي تعرفوا نوايانا جيدًا، ولا تتهموني بمهاجمتكم دون سابق إنذار. لقد وضعنا جميع القبائل في هذه المنطقة من الإمبراطورية تحت قيادة القائد، ووعدناه بأن نضع تحت تصرفه، إذا لزم الأمر، قوة من جيشنا المظفر تكفي لكي يتمكن، بمشيئة الله، من إنجاز هذه المهمة بسرعة وبنجاح.

إليكم رد د. فرانسيسكو فارونا على هذا التحدي الفريد:

"إلى السيد العظيم، إمبراطور المغرب وملك فاس.

"لقد تلقيت رسالة جلالتكم تخبرني فيها أنكم قررتم أن تكون سبتة ملكاً لكم وأنكم ستستخدمون كل الوسائل الممكنة لتحقيق ذلك. يجب أن أرد على جلالتكم بأن مَلِكِي، مع علمه بذلك، قد احتفظ بهذا المكان حتى الآن، بعون الله، ويأمل في الاحتفاظ به، مهما حدث ومهما كلفه ذلك. أما نحن الذين نحتلها، فلن يغير أي شيء جديد عزمنا على القتال حتى النهاية، ونفضل الموت على الاستسلام. لقد عهد إلينا الملك بهذا المكان، وسندافع عنه بحياتنا، إن شاء الله، الذي يمنح النصر، إن لم يتخلى عنا. سبتة، 3 سبتمبر 1692"

سارع فرانسيسكو فارونا إلى إخطار البلاط الملكي في مدريد بالخطر الذي يهدد سبتة وطلب المساعدة؛ لكن الحكومة الإسبانية، التي كانت تفتقر إلى الجنود والمال، لم تستطع إرسال أي تعزيزات[66]. في شهر أكتوبر من العام التالي، عندما وصل السلطان إسماعيل إلى المدينة ومعه 30,000 جندي، لم تكن تتجاوز قوة الحامية 600 جندي مشاة و80 فارسًا و60 مدفعيًا، 120 كاهنًا وراهبًا كان الحاكم قد سلحهم[67]، وبعض المدنيين وعدد من المنفيين. على الرغم من قلة عدد المدافعين عنها، صدت سبتة جميع هجمات

---

[64] مكتبة الأمانة العامة للحكومة. — الأرشيفات الإسبانية، C. IV، رقم 4.

[65] الذين يقولون إن تطوان بدون سبتة لا تساوي شيئًا. مجلة أفريقية، السنة 03. (مايو 1872).

[66] كانت إسبانيا آنذاك في حالة انحلال تام. ويمكن أن نقرأ، في برقيات السفراء الفرنسيين في ذلك الوقت، وخاصة في مراسلات غورفيل، إلى أي درجة من العجز وصلت، في نهاية القرن السابع عشر، مملكة كارلوس الخامس وفيليبي الثاني.

[67] نحن نتساءل عما كان بإمكان 120 رجل دين — بل وأكثر من ذلك، لأننا لا نتحدث هنا إلا عن أولئك الذين كانوا قادرين على حمل السلاح — أن يفعلوا في سبتة، وسط ساكنة لا تتجاوز 1500 نسمة.

السلطان الذي، بعد أن يأس من الاستيلاء عليها بالقوة، حوّل الحصار إلى طوق. أقام معسكرًا محصنًا على بعد بضع كيلومترات من سبتة وبنى فيه منازل للضباط وأكواخًا للجنود.

عندما اندلع الصراع على العرش في سنة 1701، بعد وفاة الملك الإسباني كارلوس الثاني، اعتقد السلطان إسماعيل أن الفرصة أصبحت مواتية للقيام بمحاولة جديدة. فمحاصر سبتة مرة أخرى، لكن هذا الحصار الثاني لم يكن أكثر نجاحاً من الأول. بعد عدة غارات غير مثمرة، اضطر السلطان إلى العودة إلى أسلوب الحصار: قامت فرقة قوية من جيش البخاري[68]، التي كانت تستبدل مرتين في السنة، بأخذ موقعها في المعسكر المحصن، كما تلقت المحلات العسكرية القادمة من المناطق المختلفة الأوامر للمرابطة هناك لمدة شهر بالتناوب؛ وكان على يهود تطوان أن يزودوهم بالبارود، الذي كان يُستخدم على الفور في إحداث دوّي لا جدوى منه[69].

لم يتم رفع الحصار نهائياً إلا في عام 1721، بعد أن استمر 27 عاماً. هاجم الماركيز دي ليف، الذي أرسله الملك فيليبي الخامس إلى سبتة مع أسطول وجيش، معسكر المغاربة. وبعد طردهم من تحصيناتهم، طاردهم حتى وديان مرتفعات بليونش: وكانت غنائم هذه الانتصار 4 أعلام و27 مدفعًا ومخزونًا كبيرًا من الذخيرة[70].

في سنة 1732، عرض المغامر الهولندي الشهير ريبيردا، الوزير السابق في مدريد والمغضوب عليه فيما بعد، خدماته على السلطان عبد الله الذي كان قد خلف والده السلطان إسماعيل. أعطاه عبد الله جيشاً وأرسله لمهاجمة سبتة. حقق ريبيردا في البداية بعض النجاحات: هُزم المسيحيون في إحدى المعارك، لكن بعد بضعة أيام، انتقموا انتقامًا ساحقًا. فاجأوا المغاربة ليلاً، وألحقوا بهم هزيمة نكراء؛ وهرب ريبيردا إلى تطوان بملابسه الداخلية[71].

منذ ذلك الوقت، لم يتعرض الإسبان إلا في حالات نادرة لزعزعة سيطرتهم على سبتة.

الفقرة الخامسة

تقع شبه جزيرة سبتة على مسافة حوالي ثلاث كيلومترات وترتبط بالقارة بواسطة برزخ ضيق، وتمتد أولاً نحو الشرق ثم تنحرف نحو الشمال. تقع المدينة في الجزء الداخلي الذي تشكله شبه الجزيرة، خلف جبل أشو الذي تعلوه القلعة ويحتل طرف شبه الجزيرة. وتنقسم المدينة إلى قسمين، المدينة القديمة والمدينة

68 الحرس الأسود الشهير أو جيش البخاري هو من بنات أفكار السلطان إسماعيل. فقد جند جميع السود المنتشرين في دولته أو الذين جلبتهم القوافل من السودان، ودربهم على استخدام الأسلحة. تضم هذه القوات اليوم ما بين 12 و15 ألف فارس. وهي تشكل الحرس السلطاني ومقرها في مكناس. وميزتها الرئيسية هي إخلاصها المطلق والأعمى لإرادة السلطان.

69 Relation de trois voyages faits dans les états du roy de Maroc pour la rédemption des captifs en 1704, 1708 et 1712, ص. 342-344، — إذا صدقنا الراهب من طائفة الرحمة الذي كتب هذا التقرير وكان موجودًا في سبتة عام 1712، فإن القائد علي بن عبد الله الذي كلفه السلطان إسماعيل بقيادة الحصار كان بإمكانه، لو أراد، الاستيلاء على المدينة، لكنه كان مهتمًا بإطالة أمد الحرب. «كان علي بن عبد الله يجعل أفراد القوات تحت قيادته يزرعون السهل الواسع الذي كان الجيش المحاصر يخيم فيه. ثم كان نفس الجنود يقومون بالحصاد وجني العنب، وكل ذلك لحسابه، دون أن يكلفه ذلك شيئًا. ويبدو أنه عندما أعلن سلطان المغرب إرسال تعزيزات من الحرس جيش البخاري لتسريع أعمال الحصار، كان يحذر سراً حاكم سبتة ليتخذ هذا الأخير الاحتياطات اللازمة".

70 Calderón, Manual del oficial en Marruecos (دليل الضابط في المغرب).

71 Guttierez, historia de España,

الجديدة؛ وكلاهما مبنيان بشكل منتظم وبأناقة؛ لكن المدينة الجديدة، التي تسمى المينة، نسبة إلى الجبل الذي ترتفع عليه على شكل مدرج[72]، تتسم بمظهرها المبهج بشكل خاص.

المنازل، التي تتكون جميعها من طابق واحد، مزودة بشرفات بارزة مع ستائر ملونة أنيقة أو خضراء، تظل مغلقة باستمرار حتى المساء، لمنع دخول الضوء الساطع. في كل منها، توجد حديقة صغيرة مليئة بالزهور والأشجار المثمرة، مما يضفي عليها جواً منعشاً لطيفاً. الجدران الخارجية، المبيضة مثل جدران المنازل الموريسكية، نظيفة بشكل لافت. الشوارع والأرصفة مرصوفة بالحصى الملون بألوان مختلفة ومرتبة في أشكال متنوعة. أخيرًا، هناك ثلاث متنزهات مزروعة بأشجار جميلة، ولا سيما متنزه صغير يسمى "*Paseo de la Reina*" وهو مكان التجمع لسكان المدينة خلال أمسيات الصيف الجميلة. يزود المدينة بالمياه منبعان رئيسيان وعدة نافورات. عند سفح القلعة، تم بناء خزانات واسعة، مرتبة على طوابق، لتزويد الحامية بالمياه اللازمة، في حالة جفاف المنابع، وهو ما لم يحدث أبدًا. المستشفيان اللذان يمكنهما استيعاب عدة مئات من المرضى، وبعض الكنائس ذات الشكل والديكور الداخلي المتواضع، ومقر الحاكم، ومقر سلاح المهندسين (*Maestria del cuerpo de ingenieros*) هي المباني الوحيدة التي تستحق الذكر.

لا يوجد أي تواصل بين سبتة والمناطق الداخلية. كل علاقة مع المغاربة محظورة بشكل مطلق. ونتيجة لهذا الحصار، تعاني المدينة من ركود تام، حيث تعتمد بشكل حصري على المساعدات التي تتلقاها من الدولة الأم. هذه السياسة الجامدة تمنع أي نشاط تجاري وتضفي على سبتة طابعاً فريداً. يتألف السكان المدنيون، الذين يعيشون في حالة من الفقر المدقع عموماً، من إسبان ومغاربة ويهود وبعض السود. معظم الإسبان هم من المنفيين أو المدانين السابقين. ولا يتجاوز عددهم 1500 إلى 1800 نسمة، ويعملون في زراعة البساتين أو في التجارة الساحلية والصيد. تكثر أسماك التونة في هذه المناطق. يتم صيد ما بين 130 و150 ألف سمكة كل شهر. وفقًا للاتفاقيات المبرمة، يتم اقتطاع 500 سمكة يوميًا لتلبية احتياجات الحامية، أما البقية، فبعد تمليحها، يتم شحنها إلى قادس ومالقة وقرطاجنة وبلنسية.

على الرغم من وجود العديد من البساتين في سبتة، كما ذكرنا سابقًا، إلا أن سكانها يتوجهون إلى تطوان لشراء كميات كبيرة من الفاكهة. كما يتم استيراد الأبقار وبعض المواد الغذائية الأخرى من هذه المدينة، ولكن بشرط ألا يكون هناك أي تواصل بري بين المدينتين.

سبتة هي عاصمة السلطة السياسية والعسكرية للمستعمرات الإسبانية في شمال المغرب. تتكون الحامية من 2500 رجل، يشكلون أربعة كتائب مشاة ومختلف الوحدات العسكرية الأخرى، مثل سلاح الهندسة والمدفعية وحتى الفرسان. يبلغ عدد السجناء أو المدانين 2600 شخص. يتم تشغيل بضع مئات منهم في منازل السكان، كعمال أو خدم. لا تستوعب الأوراش العامة سوى حوالي 2000 من هؤلاء المدانين، الذين يعملون في تنظيف المدينة وصيانة التحصينات أو صناعة الملابس والمعدات للحامية.

[72] جبل المينة حسب الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص. 528 .

الفرقة السادسة

يتم الدفاع عن الخليج بواسطة بطاريتين من 10 إلى 12 قطعة، موضوعة على كل جانب من جوانب الحصن الذي تشكله. على الرغم من أنها موضوعة على ارتفاعات مختلفة، إلا أن نيرانها منخفضة. هناك أيضًا بطارية من مدافع الهاون. الجزء الرئيسي من وسائل الدفاع عن المكان موجه نحو الداخل. تحتل قلعة مستطيلة خط قمة الحاجز، بين المنحنيين اللذين يشكلان في الشمال الغربي والجنوب الشرقي مضيق شبه الجزيرة، الذي لا يتجاوز عرضه في هذا المكان 400 إلى 500 متر. يحمي الجانبين المواجهين للقارة والمينة حصن منيع؛ أما الجوانب المطلة على البحر فهي مزودة بأبراج مربعة. أمام الجبهة المواجهة للقارة، يوجد حصن به نتوءات، يغطيه من الجانب الأيمن حصنان آخران غير منتظمين الشكل. القلعة محمية بخندق واسع مبني من الحجارة، متصل بالبحر من الجانبين ومغمور بالمياه دائمًا؛ ويؤدي جسر متحرك من القلعة إلى المنشآت المتقدمة. هذه التحصينات مزودة بعدد كبير من المدافع. يبلغ العدد الإجمالي للأسلحة 150 مدفعًا.

بصرف النظر عن أسوار التحصينات الدائمة للمكان، يوجد على الحدود سور ثانٍ يبلغ ارتفاعه 5 إلى 6 أقدام ومحمي بواسطة حصون خرسانية. هذه المنطقة، التي تمتد أكثر نحو الجنوب، لا تتجاوز سوى ببضع مئات من الأمتار القمة المتموجة، القريبة من نتوءات على شكل هلال، والتي يرابط عليها نهارًا الحراس الذين يراقبون المناطق المحيطة. أثناء الليل، تنسحب هذه الدوريات وفصيلة من الفرسان التي تعمل كاحتياطي لها إلى القلعة، حيث المدافع محشوة دائماً والفتائل مشتعلة تحسباً لأي هجوم، رغم استحالة نجاحه[73].

القلعة: بُنيت على جبل أشو، وتحميها أبراج مربعة مزودة بأربعة منابر. إلى الشرق، على سفح الجبل، يوجد برج المراقبة مع سارية الإشارات التي ترفرف عليها الألوان الإسبانية. من هذا الموقع، يمكن رؤية المضيق بكامله، وكذلك سلسلة مرتفعات جبالة، إلى الجنوب الغربي. يتكون ساحل شبه الجزيرة من منحدرات صخرية حادة، وفي كل مكان تتيح فيه الصخور الوصول إلى الساحل، تم بناء حصون.

الفقرة السابعة

الطرف الشمالي من شبه الجزيرة، جبل موسى، يقابل رأس أوروبا الذي ينتهي عند صخرة جبل طارق، على الجانب الآخر من المضيق. لا يفصل بين هذين العمودين القديمين لهرقل سوى مسافة 20 كيلومترًا. ويبدو أن المسافة كانت أقل من ذلك في العصور القديمة. الجغرافي سيلاكس، الذي كتب قبل 500 عام من ميلاد المسيح، واستقى من السجلات الفينيقية المعلومات القيمة التي تركها لنا، يذكر أن عرض مضيق

[73] Pourcet، Notice sur quelques ports du Maroc، Minano، T. I. Diccionario geográfico de Espana y Portugal. — تم تغيير هذا الوضع بموجب معاهدة 26 أبريل 1860. نصت المادتان 2 و3 على أن «الأراضي الخاضعة لسلطة سبتة ستمتد إلى الأماكن الأكثر مراعاة لأمن ودفاع الحامية». " تنازلت السلطات المغربية لإسبانيا عن كامل الأراضي الواقعة بين البحر، على طول مرتفعات بليونش (على بعد 10 كيلومترات إلى الغرب) وحتى وادي أنجرة (الواقع على بعد 25 أو 30 كيلومتراً من سبتة). في يناير 1860، أُعلنت مدينة سبتة ميناءً حراً، إلا بالنسبة للتبغ والملح والبارود. وتم تمديد هذه الحرية حتى شهر مايو 1863.

جبل طارق لا يتجاوز عرض مضيق البوسفور في تراقيا. ووفقًا لتقارير القرطاجيين، كان البحر في ذلك الوقت ضحلًا جدًا بين جبل موسى وجبل طارق ولم يكن يسمح إلا بمرور السفن ذات القاع المسطح. وكانت هناك جزيرتان مغطيتان بأشجار الزيتون البري، حيث كان يوجد معبد ومذابح تكريمًا لهرقل، بطل صور، ترتفعان في وسط المضيق. في عهد الرومان، اختفت هاتان الجزيرتان، لكن بلينيوس وسترابون يؤكدان أن رقعة رملية واسعة كانت لا تزال تمتد بين القارتين. ووفقًا لبلينيوس، كان عرض مضيق الأعمدة يبلغ سبعة أميال رومانية في أضيق جزء منه. يشير الإدريسي، الذي كتب في القرن الثاني عشر، إلى بعض المياه الضحلة الواقعة بين سبتة وجبل طارق كنقاط ثابتة لقياس المسافة. لم يعد هناك اليوم أي أثر للرمل الذي ذكره بلينيوس واسترابون، ولا للمياه الضحلة التي ذكرها الإدريسي، ويمكن للسفن أن تعبر المضيق بأمان على طول امتداده. يقول دورو دو لا مال: "يُنسب التوسع المتتالي لمضيق جبل طارق إلى التيار السريع الذي ينقل المياه من المحيط إلى البحر الأبيض المتوسط. واستمر هذا التوسع طالما وجد التيار أجزاء لينة ومتحركة يمكنه التأثير عليها بسهولة[74]".

الفقرة الثامنة

خليج سبتة مفتوح أمام جميع الرياح القادمة من الشمال والشرق. يتم إلقاء المرساة على مسافة قصيرة من اليابسة، على عمق 10 إلى 12 ذراعًا من الرمال والصخور. تثبيت السفينة جيد، ولكن عندما تهب رياح الشمال الشرقي، تصبح أمواج البحر عالية جدًا، ومن الحكمة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذه الحالة. يوجد في وسط المدينة قناة بها رصيف صغير يكفي لإنزال المسافرين بأمان. أما بالنسبة للبضائع، فيجب مراعاة وقت المد والجزر، إذا لم نرغب في المخاطرة بجنوحها تمامًا.

يمكن أيضًا الرسو في الخليج الصغير الواقع جنوب المدينة؛ ولكن يجب عندئذ الانتباه جيدًا حتى لا تفاجئك رياح عرض البحر، والاستعداد دائمًا للإبحار.

يعمل خط مواصلات بين الجزيرة الخضراء وسبتة بواسطة شباك[75]، ويقوم برحلات منتظمة مرتين في الأسبوع. وقد رأينا أن المواقع الأخرى لا تربطها علاقات سوى بمالقة، ولكن لا توجد أي اتصالات بين المواقع نفسها.

وراء جبل موسى، يتجه الساحل أولاً نحو الغرب، ثم نحو الجنوب الغربي. وهو محاط بالجبال التي تنتهي منحدراتها عند البحر، ويبدو أنه لا يمكن الوصول إليه في معظم الأماكن. عند النظر إليه من طريفة، يبدو وكأنه جزيرة. تشير الخرائط البحرية الحديثة إلى وجود عدة خلجان ورؤوس صخرية تمتد حتى رأس المنار، لكن الخرائط القديمة لا تذكر سوى نقطتين على الساحل، هما مرسى موسى والقصر[76].

يقع مرسى موسى الصغير، حيث يمكن للقوارب المتوسطة الحجم التي تفاجئها العواصف أن تبحث عن ملاذ، على بعد بضعة أميال فقط من سبتة. يخبرنا البكري أنه في عصره، كانت العديد من القبائل الأمازيغية

---

[74] Géographie physique de la Mer Noire et de la Méditerranée. Revue africaine, 16e année, 04. (JUILLET 1872).

[75] الشباك أو الشّبك (وجمعها: شُبُك بالضم) عبارة عن سفينة شراعية متوسطية كانت تستخدم في الغالب للتجارة. كان لدى الشبك دق مائل مقوس طويل متدلي وصاري في الخلف

[76] القصر الصغير، قصر المجاز، قصر مصمودة

تخيم حول القلعة، وأنه كانت توجد آبار على الساحل: كانت مياه هذه الآبار ممتازة. ويقول: "الى هناك كان يتوجه سكان سبتة للاستمتاع بالصيد".

مرسى موسى. من الغريب أن القائدين المسلمين، طارق بن زياد وموسى بن نصير، اللذين عبرا بوابة الممرات، كما كان يُطلق على مضيق جبل طارق[77] في ذلك الوقت، أو Fretum gaditanum، كما كان يسميه الرومان، قد ترك كل منهما تذكارًا لغزوه، أحدهما على الساحل الذي غادره (مرسى موسى)، والآخر على الساحل الذي وصل إليه (جبل طارق)[78]. لا تذكر خريطة فيسكونتي وباتيستا أغنيسي وخريطة بيزا مرسى موسى.

الفقرة العاشرة

كان القصر الصغير، أكثر شهرة في العصر الوسيط. وقد ورد ذكره في جميع خرائط تلك الحقبة. وفقًا لرواية مارمول، فالقصر الصغير، والمعروف غالبًا باسم القصر اختصارًا، وبالاسم الإسباني Alcasar، تم بناؤه حوالي عام 1192 على يد يعقوب المنصور الموحدي، على مسافة متساوية تقريبًا بين سبتة وطنجة. ويقول: "كان هذا السلطان مغوارًا لدرجة أنه كان يقضي معظم أوقاته في الأندلس كل عام ليحارب المسيحيين، ولأن الطريق إلى سبتة، من حيث كان يبحر عادةً، كان شاقًا على جيشه، فبنى هذه المدينة في مكان أكثر ملاءمة، حيث كان فيه مرسى جيد للسفن، ولم يكن يبعد عن طريفة سوى بخمسة أميال. كان يرسل جيشه وأسطوله من هناك بأقل جهد وخطر مما كان يفعله من قبل من سبتة، وأطلق على المكان الجديد اسم القصر الصغير، لأنه لم يبني فيه في البداية سوى قلعة صغيرة؛ ولكن بعد فترة وجيزة، قام ببناء مساكن ومساجد، واجتذب إليه العديد من التجار والحرفيين والبحارة.

يلاحظ رينو أن يعقوب المنصور لم يكن مؤسس القصر، بل إن هذا السلطان قام على الأكثر بإعادة بنائه أو توسيعه؛ وقد ورد ذكره في كتاب البكري الذي كتب في عام 1067، وفي كتاب الإدريسي الذي أنهى كتابه الجغرافي الكبير في عام 1154. وقد أطلق عليه هذان المؤلفان اسم قصر مصمودة، أو قلعة مصمودة. كما كانت تسمى قصر المجان أو قصر الجواز، أي قلعة الممر أو العبور.

الفقرة الحادية عشرة

في عام 1457، وعد ملك البرتغال ألفونسو الخامس البابا قالسطوس الثالث، الذي كان قد أعلن للتو حملة صليبية ضد الأتراك، بالمشاركة في هذه المهمة مع الأمراء المسيحيين الآخرين، فجهز أسطولًا ضخمًا وجمع جيشًا قوامه 17000 رجل. ولكن وفاة البابا قالسطوس في تلك الأثناء أوقفت تنفيذ هذا المشروع؛

[77] باب الزقاق. هذا هو الاسم الذي أطلقه عليه الإدريسي «العرب في المغرب، مثلهم مثل العرب في الجزائر، لا يعرفونه إلا باسم فم البوغاز، أي فم المضيق. والاسم الثاني من هذين الاسمين مأخوذ من اللغة التركية». Renou, Description géo-graphique de l'empire du Maroc, ص. 302.

[78] جبل طارق، الذي حوله الإسبان إلى Gibraltar.

إلا أن ألفونسو لم يرغب في أن تذهب كل تلك الاستعدادات الضخمة سدى، وقرر استخدامها ضد المغاربة في إفريقيا. كان يشتكي من سكان القصر الصغير الذين قرروا بناء بعض السفن الشراعية من الخشب الذي زودهم به أمازيغ الجبال المجاورة، مما أعاق بشكل كبير الملاحة البرتغالية. في الأيام الأولى من شهر يوليو 1458، أبحر ألفونسو مع شقيقه الأمير إنريكي و"جميع النبلاء" إلى القصر الصغير. صدهم السكان في البداية بشجاعة، ولكن سرعان ما أصيبوا بالرعب من مدفع كبير صوّبه الأمير نحوهم، فيئسوا من النجاة، فسارعوا بطلب الاستسلام. تقول السجلات التاريخية: "دخل ملك البرتغال المكان في جو ديني واحتفالي، وبعد أن طهر المسجد، شكر الله على انتصاره. ثم أعاد بناء الأسوار وأمر ببناء سور جديد على جانب البحر".

في شهر ديسمبر من نفس العام، قام سلطان فاس، برفقته أبو حسون أشجع قادة أفريقيا، هاجم القصر الصغير، لكن القائد إدوارد دي مينيسيس قاومه بشدة، فاضطر المغاربة، بعد أن خسروا معظم مدافعهم في هجوم على المحاصرين، إلى الانسحاب دون أن يحققوا شيئًا. في عام 1460، ظهروا مرة أخرى أمام الموقع وحاصروه لمدة تقارب العشرة أشهر. لكن الحامية كانت قد تعززت بإمدادات من لشبونة في الوقت المناسب، وكانت قد وصلت إليها مؤخرًا، فتم صد سلطان فاس، كما في المرة الأولى، وتكبيده خسائر فادحة.

استمر احتلال البرتغاليين للقصر الصغير 96 عامًا. في عام 1553، في عهد جواو الثالث، تخلى البرتغاليون عن القصر الصغير بسبب التكاليف الباهظة التي كان يتكبدونها دون أن يجنوا أي ربح[79].

الفقرة الثانية عشرة

وفقًا لمانر، حل القصر الصغير محل بلدة إكسيليسا الصغيرة، التي ورد ذكرها في جداول بطليموس[80]. يقول البكري أنه في القرن الحادي عشر كان لا يزال هناك العديد من الآثار القديمة، من بينها أروقة وأقواس. ويضيف أن المياه في محيط القصر عالية الجودة، وأنه يكفي أن يحفر المرء في الرمال لتنبثق منها الينابيع.

وأبعد قليلاً يوجد رأس المنار[81]، الذي يفتح خليج طنجة من الجهة الشرقية. هذا الرأس، الذي يُعرف عادة باسم رأس مالاباطا، هو امتداد لجبال أنجرة، الذي أخذت منه المنطقة الواقعة بين تطوان وطنجة اسمها. وهو مذكور في خرائط الملاحة البحرية في العصر الوسيط، ولكن دون تسميته. يصب نهر صغير في البحر في عمق الخليج: إنه وادي هلك عند المؤرخين العرب، والذي يطلق عليه بطليموس اسم والون. يمكن تمييز العديد من آثار المباني القديمة على تلة على الضفة اليمنى، والتي يعرفها البحارة باسم طنجة البالية.

---

79 تخلى البرتغاليون عن القصر الصغير وقاموا بتفكيك القلعة في عام 1553، في الوقت نفسه قاموا بتفكيك مدينة أصيلا. (سواريز مونتانيس) ص. 707.

80 ليسا، عند بلينيوس.

81 رأس كوتس، حسب سترابون وبطليموس، وفقًا لماركوس.

يعتقد مانير أن تينجيس القديمة كانت تقع في هذا المكان؛ لكن لا يمكن قبول هذا الترادف. يقول رينو: "من المؤكد تمامًا أن تينجيس كانت تقع في المكان الذي تقع فيه طنجة حاليًا. لا تدع الآثار الرومانية التي عُثر عليها هناك وموقعها بالنسبة إلى المرسى أي شك في هذه الهوية. اعتقد بعض المؤلفين أنه يجب البحث عن تينجيس بين الآثار الرومانية في طنجة البالية، الواقعة شرق المدينة الحالية، ولكن هذا الرأي لا يستند إلا إلى تشابه في الأسماء.

الفقرة الثالثة عشرة

طنجة هي أقدم مدينة في هذه المنطقة من أفريقيا. يعود تاريخها إلى 1450 سنة قبل الميلاد. الفينيقيون أبحروا من صور وصيدا وأسسوا محطات تجارية حتى أقصى غرب البحر الأبيض المتوسط. يروي بروكوبيوس أنه كان لا يزال من الممكن رؤية عمودين في طنجة في عصره عليهما نقش فينيقي يقول: "نحن الذين هربنا من اللص يوشع بن نون[82]". وقد أضفى الإغريق على طنجة أصلًا أسطوريًا. يقول بلوطرخس: "يدعي المؤلفون القدماء أنه بعد وفاة عنتي[83]، أنجبت زوجته تينجيس من هرقل ابناً اسمه سيفاكس، الذي حكم البلاد وبنى مدينة سماها تينجيس، على اسم والدته. ويضيف المؤرخ الشهير أنه يورد هذه التفاصيل تكريماً للملك يوبا، أعظم مؤرخ بين الملوك، الذي قيل إنه من نسل سيفاكس. تثبت هذه الأسطورة أن اليونانيين، وإن كانوا لا يعرفون الأصل الحقيقي لطنجة، كانوا على الأقل يعلمون أنها مدينة قديمة جداً.

في عهد الرومان، كانت تينجيس مقرًا لمستوطنة كبيرة. رفعها الإمبراطور كلوديوس إلى مرتبة مستعمرة، وأصبحت عاصمة موريتانيا الطنجية. وقد جاء العديد من المستوطنين من إسبانيا وحتى من إيطاليا لمضاعفة عدد سكانها وزيادة روعتها. وكان قد جذب هؤلاء المهاجرين الأمن الذي كانت توفره المستوطنات الرومانية في إفريقيا، والثروات التي كانت تغدقها هذه الأرض الخصبة على كل من يسعى إليها عن طريق الزراعة أو التجارة. حافظت طنجة على ثرائها في عهد الأباطرة البيزنطيين والملوك القوطيين. عندما استولى عليها العرب، كانت تعتبر المدينة الأولى في غرب إفريقيا. وقد أطلق عليها هؤلاء الغزاة، الذين أُعجبوا بقوتها وثروتها، في لغتهم المفعمة بالصور، اسم المدينة ذات الأسوار النحاسية والقصور المتلألئة بالذهب والفضة، ومقر ملوك المغرب، وأم مدن البلاد المغاربية، والأجمل والأقدم. يؤكد البكري أن طنجة كانت لا تزال تحتوي، في القرن الحادي عشر، على العديد من بقايا الآثار القديمة، والأبراج المهدمة، والأروقة المقوسة (الأعمدة، والحمامات، والألواح الرخامية العريضة، والصخور المنحوتة). في كل مكان، في المناطق المحيطة، كان يمكن العثور على الأحجار الكريمة عن طريق حفر الأرض أو نبش المقابر القديمة.

---

82 يَشُوعُ بْنُ نُونٍ (عند المسيحيين) أو يُوشَعُ بْنُ نُونٍ (عند المسلمين) (יְהוֹשֻׁעַ يِهُوشُوَّع بالعبرية) يقال إنه نبي، هو شخصية في العهد القديم المذكور في سفر يشوع. إذا كان يشوع شخصية تاريخية، لكان عاش بين القرنين ال13 ق م وال12 ق م. اسمه يشوع بن نون بن إفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

83 عنتي (يعرف أيضاً ب:آنتايوس أو آنتي في الأساطير الإغريقية) هو بطل من الأساطير الأمازيغية، إذ كان حامياً لأرض الأمازيغ ضد الأجانب الذين حاولوا إيذاء الأمازيغ، وارتبط أيضاً بالأساطير الإغريقية. وتعد مقبرته الأسطورية من أهم الآثار في شمال غرب المغرب، وهي واقعة في موقع مزورة في دائرة العرائش. يعتقد البعض أن اسم عنتي، كما كان يوصف حورس «حوروس عنتي». وهو ما قد يعني أن اسمه قد يعني: «المصارع» أو «المحارب» كما تعني في اللغة المصرية القديمة، بافتراض أن الاسم حامي الأصل يوجد في اللغة المصرية القديمة والأمازيغية اللتان ترتبطان إلى درجة ما فيما بينهما، وهو ما ذهب إليه الأستاذ مصطفى اعشي.

في العصر الوسيط، كانت أهمية طنجة كمركز تجاري أقل من أهمية سبتة: لم يكن جميع التجار المسيحيين مسموحًا لهم بالدخول إليها. حصل البندقيون على امتياز التجارة فيها، ولكن لا توجد تفاصيل عن نوع التجارة التي كانوا يمارسونها هناك. كل ما نعرفه هو أن العديد من التجار البندقيين أصبحوا أثرياء هناك: يذكر فيلياسي على وجه الخصوص عائلتي سورانزي وكونتاريني[84].

الفقرة الرابعة عشرة

في عام 1437، قرر الملك إدواردو ملك البرتغال، الذي كان قد استولى على سبتة، توسيع نطاق حملته الاستعمارية في إفريقيا، فقرر الاستيلاء على طنجة. عارض العديد من أعضاء مجلسه هذه الحملة، لكن الملك تجاهل معارضتهم واستجاب لطلبات شقيقيه، الأميران إنريكي وفرناندو. في الأيام الأخيرة من شهر غشت، رست القوات العسكرية، التي كان قوامها يتراوح بين 12 و15 ألف جندي، في سبتة، التي تم اختيارها كقاعدة للعمليات. توقف الأميران هناك لبضعة أيام لتلقي خضوع العديد من قبائل المنطقة، التي فاجأها وصولهما وخشيت التعرض للهجوم، ثم اتخذا الترتيبات اللازمة للزحف على طنجة.

تقرر التوجه إلى هذه المدينة في مجموعتين منفصلتين؛ الأولى بقيادة د. إنريكي، كانت ستتوجه إلى هناك براً، بينما كانت المجموعة الثانية ستتبع الساحل بواسطة الأسطول. كان الطريق البري صعباً آنذاك كما هو اليوم، لكن المهمة أنجزت بنجاح. في 23 سبتمبر، التقى الأميران أمام طنجة. كان المكان محميًا بـ 6 أو 7 آلاف رجل تحت قيادة صلاح بن صلاح، الحاكم السابق لسبتة، الذي كان ينتظر فرصة للانتقام، ووعد ملك فاس بأن البرتغاليين لن يدخلوا طنجة أبدًا. صدّ المغاربة الهجوم الأول، وعندما انتشر خبر هذا النصر، هرعت أعداد غفيرة من المغاربة من الداخل وهاجمت معسكر المسيحيين. اضطر الأميران إلى شن عدة هجمات لصد تلك الحشود. لم ينجح الهجوم الثاني أيضاً، وفي الوقت نفسه، وردت أنباء بأن سلطان فاس يتقدم بجيش ضخم لرفع الحصار.

كان الانسحاب ضروريًا، لكنه لم يكن سهلاً. فقد كان سلطان فاس، الذي كان قد وصل لتوه، يحاصر الجيش البرتغالي. "تعرض المسيحيون لثماني هجمات في معاقلهم؛ وكان أسقف إيفورا د. ألفاريز دابريو، يضرب "الكفار" بيده ويبارك الجنود باليد الأخرى بمرسوم الحملة الصليبية[85]. أدرك الأميران أن المقاومة لفترة أطول مستحيلة، فعرضا الاستسلام. تم الاتفاق على أن يرتحل البرتغاليون إلى سبتة، وأن يتم تسليم هذه المدينة، مع كل معداتها الحربية، إلى المغاربة. ترك الأمير فرناندو كرهينة، لضمان تنفيذ هذا الاتفاق.

عندما انتشر خبر المعاهدة في البرتغال، كان الغضب شديدًا. رفضت المجالس التمثيلية التصديق عليها «معلنة أن خسارة أمير من الدم الملكي أفضل من خسارة موقع حربي». واقتُرح مبادلة الأمير بابن الحاكم السابق لمدينة سبتة؛ كما عُرضت تعويضات مالية على سلطان فاس؛ لكنه لم يقبل التنازل عن مطالبه، وظل دون فرناندو أسيرًا حتى وفاته عام 1443.

[84] Filiasi, Antico commercio di Venezia, p. 22 (فيلسي، تجارة البندقية قديماً، ص. 22).
[85] L. Godard, Description et histoire du Maroc, p. 399.

حاول البرتغاليون مرة ثانية، في عام 1464، الاستيلاء على طنجة. تقدم الجيش المسيحي إلى أسوار المدينة، على أمل الاستيلاء عليها بسهولة: قيل إن اتفاقات سرية أبرمت مع بعض السكان. تمت محاولة الهجوم بتسلق الأسوار، لكن العدو كان يقظًا. هُزم المسيحيون وواجهوا صعوبة كبيرة في العودة إلى سبتة.

بعد سبع سنوات، دخل البرتغاليون، الذين لم يتمكنوا من السيطرة على طنجة بالقوة، المدينة دون قتال بعد الاستيلاء على أصيلة. كان السكان خائفين ويتوقعون ظهور الجيش البرتغالي في أي لحظة، فهجروا المدينة. أرسل الملك ألفونسو الخامس من سبتة ابن دوق برغنسة[86] ليحتلها (في 28 غشت 1471). وتوجه إليها بنفسه بعد بضعة أيام وعهد بإدارتها إلى د. رويز دي ميلو.

الفقرة الخامسة عشرة

كانت طنجة، حتى عام 1580، تابعة للبرتغال. في ذلك الوقت، انتقلت، مع باقي البلاد وجميع المستعمرات الأخرى، إلى الحكم الإسباني. في عام 1640، عندما انفصلت مملكتا شبه الجزيرة الإيبيرية عن بعضهما البعض بشكل عنيف، بقيت طنجة في البداية تحت سيطرة الإسبان؛ ولكن بعد ثلاث سنوات "بعد أن قامت بثورتها مثل لشبونة"، عادت إلى الحكم البرتغالي. اكتشفنا في أرشيف الأمانة العامة للحكومة مذكرة غير منشورة تروي قصة تمرد طنجة، كما سماه الإسبان. هذا الوثيقة مهمة للغاية[87].

"قرر عدد من أعيان طنجة، الاستيلاء على القصبة على حين غرة وأسر كونت سرسيداس الذي كان يحكم المدينة نيابة عن الملك فيليبي الرابع. كانت المؤامرة قيد الإعداد منذ أكثر من عامين، وبدا للجميع أنه من المدهش أن الحاكم لم يكن على علم بها؛ ولكن بعد أن انتشر الخبر، وبعد أن تم إطلاع بعض النساء والأطفال على السر دون توخي الحذر، خشي المتآمرون من كشف السر، ورأوا أن أي تأخير إضافي قد يؤدي إلى إفشال المخطط.

يوم 23 غشت 1643، عشية عيد القديس برثولماوس، اتفق قادة المؤامرة على مقابلة المتآمرين الآخرين في الدير حيث كانوا يجتمعون عادة. وكان الجميع مقتنعين بضرورة التحرك دون تأخير، فقرروا تنفيذ مخططهم في الليلة التالية. كان أحد قادة الحامية المشاركين في المؤامرة يقضي نوبة حراسة في القصبة في تلك الليلة. واستعد لاستقبال المتآمرين عند وصولهم. وعند حلول الليل، قبل ثلاث ساعات من الموعد المحدد، صعد المتآمرون الطريق المؤدي إلى القلعة بصمت ودون أن يراهم الحراس. فتح لهم الباب مانويل دياز دي فيالوبوس، الذي كان قائد الحراسة قد أبلغه بالأمر، وسارع بإغلاقه خلفهم. في الوقت نفسه، احتل المتآمرون الذين بقوا في المدينة المواقع الرئيسية، دير القسيسات، والشوريسو [88] وباب الحدادين.

«حتى ذلك الحين، كان كل شيء يسير على ما يرام، ولم يتبق سوى اعتقال كونت سارسيداس. توجه رئيس أساقفة (شمامسة) أصيلة واثنان من الرهبان ومتآمر آخر[89] إلى قصر الحاكم. وبعد أن استدعوا الحرس وطلبوا رؤية كونت سارسيداس على الفور، فتح الجنود الباب ودخلوا دون الحاجة إلى التعرف

---

[86] بَبَرغَنْسة أو بَراغَنسا أو (نقحرة: براغانزا) (بالبرتغالية: Bragança) هي مدينة برتغالية تقع في محافظة بَرغَنْسة شمال البلاد.

[87] Archives espagnoles, C. IV, n° 4.

[88] A granja do chouriso (مزرعة النقانق).

[89] مؤلف المذكرة، لكنه لم يذكر اسمه.

على هويتهم. كان الحاكم مسترخياً دون أن ينتبه إلى ما يجري. استيقظ على صوت الطرق على باب غرفته، وسأل عما يريدون. أخبره رئيس الأساقفة أن الشعب قد ثار وبدأ يهتف للملك جواو الأول ملك البرتغال. فقد الكونت صوابه عند سماع هذا الخبر وظن أن الناس جاءوا لقتله، فسارع بالرد أنه مستعد للاعتراف بدوق برغنسة ملكًا وأنه سيفعل كل ما يريده الشعب. وفي الوقت نفسه، فتح الباب وألقى بنفسه مذعوراً في أحضان رئيس الأساقفة. طمأنه هذا الأخير، وكذلك الكونتيسة التي كانت قد وصلت للتو.

«بينما كان هذا يحدث، دخل متآمرون آخرون إلى القصر. كان بعضهم مسلحين بفؤوس لاستخدامها في كسر الأبواب إذا رفض فتحها. عند رؤيتهم، توسلت الكونتيسة، التي كانت مرعوبة، معتقدة أنهم جاءوا لقتل زوجها، أن يقتلوها هي، ويتركوا الكونت. تمكن رئيس الشمامسة من تهدئتها، بعد جهد كبير، مكرراً لها أن حياة الحاكم وحياتها لن تمس، ثم طلب منها مفاتيح المدينة ومفاتيح المحفوظات، فسلمتها له على الفور. ثم اقتيدت إلى قصر المطران، مع الكونت الذي بدا منهكاً وكافة أفراد أسرته.

«هكذا حدث تمرد طنجة، دون إراقة دماء ودون أن يتضرر أحد. بعد ساعتين، كان كل شيء قد انتهى وكان الشعب هادئًا للغاية؛ باستثناء بعض الوجوه العابسة، التي استعادت ابتسامتها لاحقاً، كانت جميع الوجوه مبتهجة وكانوا يهنئون بعضهم البعض[90].

"في اليوم نفسه، تم تعيين حاكم، وانتخب الشعب أندريس دياز دا فرانسا. في اليوم التالي، يوم 25 غشت، استقل فرانسيسكو بنيا وديبغو فاز ماشادو فرقاطة ليبلغا الملك بخبر البيعة (aclamaçao) التي أعلنها سكان طنجة، وكذلك بيمين الولاء التي أقسمها الشعب. عندما وصلوا إلى ميناء تافيرا، رُفض في البداية السماح لهم بالنزول إلى البر: كان الناس يظنونهم من القشتاليين؛ ولكن عندما عُرف ما حدث على الجانب الآخر من المضيق، خرج جميع السكان، وعلى رأسهم الحاكم، في موكب لاستقبالهم، حاملين سعف النخيل في أيديهم، كما لو كانوا يستقبلون الملك نفسه.

"يُروى أن الملك جواو أعطى ثلاثة آلاف كروزادو للرسول الذي أخبره أن طنجة عادت لتصبح تابعة لتاجه. فرح الملك كثيرًا لدرجة أنه أمر بإقامة احتفال كبير في جميع أنحاء المملكة للاحتفال بهذا الحدث السعيد، وقال أيضًا إن هذه الأخبار السارة أسعدته أكثر من خبر ولادة ابنه الأمير إدواردو، الذي أبلغ به في نفس اليوم."

الفقرة السادسة عشرة

في عام 1662، تزوج ملك إنجلترا تشارلز الثاني من الأميرة كاثرينا البرتغالية، وحصل على مدينة طنجة كمهر. كان احتلال هذه المدينة حدثًا سعيدًا بالنسبة لبلاط الملك تشارلز. كانت مدينة دونكيرك، التي سلمت قبل بضع سنوات إلى الإنجليز، قد أعيدت أو بالأحرى بيعت إلى فرنسا مقابل مبلغ كبير من المال. على أمل تهدئة الشعب الذي عارض هذه الصفقة، روجت الحكومة لتنازل طنجة، حيث بالغت كثيرًا في أهميتها،

[90] وهكذا جرى تمرد طنجة دون إراقة دماء ودون مخاطر، وقبل حلول المساء كان كل شيء قد انتهى والناس هادئون، دون حدوث أي معارضة، رغم أن البعض كان قد أبدى استياءه، إلا أن الجميع سعداء اليوم.

وزعمت أنها، بعد تزويدها ببعض القوات وتجهيزها للدفاع، ستجعل إنجلترا تتحكم في تجارة البحر الأبيض المتوسط[91].

في شهر غشت، وصل الكونت ساندويتش ليستلم مقاليد الحكم في مدينة طنجة. وأقام فيها حامية قوية كان قد أحضرها معه، وترك اللورد بيتربورو حاكماً عليها[92]. وفي العام التالي، حل محله كونت تيفيوت، الذي لم يبق في منصبه سوى بضعة أشهر: ففي 13 مايو 1664، قُتل في إحدى الغارات. خلفه اللورد بيلاسيس، الذي أجرى، تحت إشراف المهندس تشولميلي، أعمالاً هامة لتحسين الميناء والدفاع عن المكان. أنفق على ذلك أكثر من 50 مليوناً. وقد كلف بناء الرصيف المخصص لإغلاق الميناء من جهة الخليج وحده ما يقرب من 30 مليون. فشلت عدة شركات في تنفيذ المشروع، لكنها حققت ثروات طائلة[93].

وفقًا لتصاميم ذلك الوقت، كانت الصخور التي تظهر على سطح الماء عند مدخل المرسى[94] تشكل ما يشبه كاسر أمواج أمام الرصيف، المزود بمدفعين، أحدهما على الرصيف والآخر على مسافة قصيرة إلى اليسار، بحيث يمكن الرد على خط الهجوم الذي كان من الطبيعي أن ينطلق من الشمال في حالة وقوع اعتداء. كما كانت هناك منشآت خارجية تحمي محيط الموقع على الهضبة التي أصبحت الآن بلا حماية والتي تمتد إلى الجنوب الغربي من القصبة[95]. في نفس الوقت تقريبًا، منح الملك تشارلز طنجة صفة الميناء الحر، ومنحها جميع امتيازات المدينة التجارية.

في عام 1665، رغبةً منه في الاستفادة من الخلافات التي كانت تعصف بالمغرب منذ فترة طويلة، من أجل توسيع النفوذ الإنجليزي، تحالف اللورد بيلاسيس مع الخضر غيلان. وكان هذا الزعيم، الذي كثيراً ما ورد ذكره في تقارير ذلك الوقت، قد نظم مقاومة قوية في المناطق المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ونازع السلطان رشيد العلوي على فاس. ولسوء حظ الإنجليز، هزمه السلطان في معركة أخيرة وأجبره على الفرار إلى الجزائر[96]. واضطر اللورد بيلاسيس، الذي كان يتفاوض مع غيلان على التنازل عن جزء من الأراضي المحيطة بطنجة، إلى الانزواء داخل المدينة، كما فعل البرتغاليون قبله.

على الرغم من حالة الحرب، استمرت العلاقات الجيدة بين إنجلترا والمغرب: كان تجار لندن وبريسطول يلقون الترحيب في موانئ الإمبراطورية الشريفة، حيث كانوا يزاولون تجارة مزدهرة. حتى أن الملك تشارلز استقبل في عام 1674 سفارة من السلطان الجديد إسماعيل، وتبادل العاهلان الهدايا. "لكن، كما يقول الأسقف بيرنت، لم تتمكن إنجلترا أبدًا، سواء بالسلاح أو بالمعاهدات، من الحصول على ما كانت ترغب فيه بشكل خاص، أي الأراضي اللازمة حول طنجة لحماية الحامية[97]." كانت أعمال العداء نادرة في الواقع. عند توليه السلطة، منع السلطان إسماعيل قواد تطوان والقصر الصغير من إزعاج طنجة؛ ولكن في عام 1676، بعد أن سمح لسفير إنجليزي بالقدوم إلى مكناس لإبرام معاهدة تحالف وتجارة، غير رأيه

[91] Berbrugger. Les Anglais à Tanger, ap. Revue africaine, n° 29.

[92] من بين بنود أخرى، نصت المعاهدة المبرمة في لندن عام 1661 على أن يحافظ الإنجليز على كنيسة كاثوليكية في طنجة، لتلبية احتياجات القساوسة والرهبان الذين بقوا في المدينة، بشرط ألا يتم ملء الشواغر، وأن يتم هدم الكنيسة أو تحويلها إلى كنيسة بروتستانتية بعد رحيل أفراد الكنيسة الموجودين آنذاك.

[93] Th. Ledyard, Histoire navale d'Angleterre, t. II, p. 667.

[94] كان الإنجليز يطلقون عليها اسم باب ساندويتش.

[95] Léon Godard, Description et histoire du Maroc, p. 55.

[96] عند وفاة السلطان رشيد (1673)، عاد غيلان إلى الظهور في المغرب؛ لكن السلطان الجديد إسماعيل، الذي لم يترك للثورة الوقت الكافي لتنتشر، سارع إلى محاربته والتقى به في ضواحي القصر الصغير. وخلال المواجهة، هُزم غيلان، الذي تخلت عنه القبائل، ثم قُتل. يقول مويت (في كتابه Relation de sa captivité، ص. 92): «كان هذا الأمير الشجاع أندلسيًا، ينحدر من أسرة بني زيري الشهيرة في غرناطة. كان وسيمًا، ويتعامل مع الجميع بلطف وود. كان له شارب أشقر كبير. كان جنديًا بارعًا وقائدًا شجاعًا».

[97] Histoire de mon temps, t. I, p. 390.

فجأة ورفض الدخول في مفاوضات. منذ ذلك الحين، كان على حامية طنجة، التي كانت في حالة استنفار دائم، أن تصد هجمات متكررة.

إذا صدقنا بريثويت، فإن الإنجليز كانوا دائمًا غير محظوظين في خرجاتهم. ولإغرائهم بالخروج من الأسوار، استخدم المغاربة حيلة فريدة من نوعها، والتي كانت تنجح دائمًا على الرغم من تكرارها باستمرار. يقول بريثويت: "كانت الحيلة التي ابتكرها المغاربة لخداع الحامية هي عرض قطعان من 200 إلى 300 رأس من الماشية على أنظار الحامية، ثم الانتشار في كمائن في المناطق المجاورة. كانوا على يقين من أن الجنود الإنجليز سيسرعون إلى المكان، وهو ما كان يحدث بالفعل. من الصعب تفسير كيف أمكن لرجالنا أن يقعوا في فخ مناورة كان ينبغي أن يكونوا حذرين منها، خاصة وأنها كانت تتكرر بنفس الطريقة، ومن غير المعقول أن يغامروا بحياتهم بدون اكتراث[98] من أجل بضع بقرات".

في سنة 1679، قام السلطان إسماعيل بنفسه بمهاجمة طنجة. حقق في البداية بعض النجاحات، ثم خسر 4000 رجل في إحدى الهجمات. في العام التالي، أرسل قائد القصر الصغير، أحمد حدو، لمواصلة حصار المكان. دافع الإنجليز بشجاعة، لكنهم اضطروا إلى التخلي عن حصن تشارلز، الذي فجره الحاكم لتركيز كل قواته في القصبة. أمر السلطان إسماعيل بإقامة احتفالات كبيرة بمناسبة هذا الانتصار، على الرغم من أن ذلك لم يفتح له أبواب طنجة كما كان يأمل.

لم تتحسن أوضاع الإنجليز، بل أصبحت أكثر صعوبة يوماً بعد يوم. وكما كانت سبتة بالنسبة لإسبانيا ومازكَان بالنسبة للبرتغال، كانت طنجة بالنسبة لهم مصدراً لإنفاق كبير دون أي مردود. في سنة 1683، رفض البرلمان، الذي كان غاضباً من الإسراف الفاضح في النفقات وكان يرتاب في جميع طلبات التمويل، التصويت على الأموال اللازمة لتسيير شؤون طنجة. فقرر تشارلز التخلي عن هذه المدينة. وأبلغ مجلسه الخاص بهذا القرار، وحثه على التزام السرية التامة.

استعاد المغاربة السيطرة على طنجة وأعادوا توطينها. كان ذلك انتصارًا حقيقيًا بالنسبة لهم، احتفلوا به بإقامة احتفالات وعروض كبيرة تعبيرًا عن فرحتهم. ولم يفوت السلطان إسماعيل فرصة نشر خبر انسحاب الإنجليز أمام قوة أسلحته التي لا تقهر.

منذ ذلك الوقت، ظلت طنجة دائماً تحت سيطرة المغاربة، دون أن تشهد أي أحداث مهمة. ومن المعروف أنه في 6 غشت 1844، تعرضت المدينة للقصف من قبل الأسطول الفرنسي بقيادة الأمير جوانفيل.

الفقرة السابعة عشرة

تقع طنجة عند مدخل مضيق جبل طارق، متكئة على أحد سفوح رأس سبارطيل، وتتميز بمظهرها الخلاب. ويشبه موقعها إلى حد ما موقع الجزائر. ورغم أنها ليست من أكثر المدن المغربية اكتظاظا بالسكان، إلا أنها من أهمها، وذلك بفضل موقعها المتميز وكونها مقر جميع القنصليات الأوروبية. كما أن طنجة هي المقر التقليدي للباشا، الذي يعمل حصريًا لدى السلطان كوسيط في علاقاته مع مختلف القوى العظمى.

[98] Histoire des révolutions de l'empire du Maroc, p. 409.

المباني الوحيدة التي تلفت الانتباه هي المنشآت القنصلية. أما البقية فهي منخفضة وغير منتظمة ومبنية على نفس النمط. وهي عبارة عن مكعبات بيضاء كبيرة متماثلة وبدون نوافذ. الشوارع ضيقة ومتعرجة. الشارع الرئيسي، الذي يقطع المدينة من أسفل إلى أعلى، من بوابة المرسى إلى بوابة السوق، تتوسطه ساحة، وهي الوحيدة في طنجة التي يحيط بها في الجزء العلوي صفان من المحلات التجارية، التي تشبه "كهوف سوداء محفورة، بدون أبواب، مع نافذة على ارتفاع عتبة، حيث تُعرض البضائع وتُقدم للزبائن الذين يقفون في الخارج[99].

تتزود طنجة بالمياه من ثلاثة ينابيع تتدفق داخل المدينة، ولكن كمية المياه تنخفض بشكل كبير خلال فصل الصيف، لدرجة أنها تجف أحيانًا. عندها يتم استخدام مياه الآبار أو جلبها من خارج المدينة. توجد بعض الحدائق الجميلة حول طنجة، ولا سيما حديقة القنصلية السويدية، "التي تثير اهتمام علماء النبات، كما يقول ليون غودار، بسبب ندرة وجمال النباتات والأشجار التي تضمها".

يبلغ عدد السكان ما بين ثمانية إلى تسعة آلاف نسمة، منهم 1500 من اليهود[100] و150 إلى 200 من الأوروبيين، معظمهم من التجار أو موظفي القنصليات. النشاط التجاري محدود؛ يتم تداول نفس السلع المتداولة في تطوان، ولكن بحجم أقل بكثير. وتحصل الحامية البريطانية في جبل طارق على جزء من المواد الغذائية اللازمة للاستهلاك من طنجة. وتشتري فرنسا من هناك العلق والعفص وبعض الجلود غير المعالجة. ومن الناحية الصناعية، فإن طنجة أقل حظاً من تطوان: فالمؤسسات الصناعية هناك تقتصر على بعض المدابغ أو محال نسج الصوف.

الفقرة الثامنة عشرة

المدينة محاطة من جميع جوانبها بأسوار مزودة بفتحات في الجزء العلوي، وتحيط بها أبراج مستديرة أو مربعة على مسافات متباعدة. وقد شيدها البرتغاليون ولا يقل ارتفاعها عن ثلاثة أمتار في كل مكان؛ ويبلغ سمكها من 2 إلى 4 أقدام. أما الأجزاء الشمالية والشرقية المطلة على البحر فهي في حالة جيدة نسبياً. وعلى الجانب المطل على البحر، توجد آثار خندق قديم كان يبلغ عمقه 10 إلى 12 قدماً؛ وهو اليوم مملوء بالكامل تقريباً بل وتم استغلاله للزراعة. تحتل القصبة الجزء الغربي من المدينة وتطل عليه. يتم الصعود إليها من المدينة عبر ممر شاق إلى حد ما. وهي مزودة ببطارية من 16 مدفعًا، توجه نيرانها نحو المناطق الريفية في الجنوب ومدخل المضيق في الغرب. كما تحمي المدينة خمسة حصون: في الشمال، البرج الجديد، وهي بطارية دائرية مزودة بـ 8 مدافع؛ وعلى الجانب نفسه، ولكن في الخلف قليلاً، برج الريشة، ذو الشكل المربع، مزود بـ 4 مدافع فوق بوابة المرسى. برج الكَنشة؛ بطارية منخفضة مزودة بـ 18 مدفعًا، تشكل ستارة الحصن، برج الشيخ، قريب جدًا من البحر؛ وأخيرًا، في أقصى الطرف الشرقي للمدينة، برج التبنة، مزود بـ 20 قطعة. تشكل هذه البطاريات الثلاث الأخيرة طوابق، وتتقاطع نيرانها على المرسى الواقع على بعد حوالي ميل واحد من الشاطئ.[101]

---

[99] Ch. Didier, Promenade au Maroc, page 47.

[100] لا يعيش اليهود في حي منفصل كما هو الحال في المدن الأخرى.

[101] Pourcet, Notice sur quelques ports du Maroc

الفقرة التاسعة عشرة

ميناء طنجة صغير وضحل؛ تغمره الرمال، ولا يمكنه استقبال سوى السفن ذات الغاطس الضحل. الخليج، المحاط بالتلال، جميل للغاية. بين رأس المنار ورأس طنجة ميل ونصف الميل. إنه أفضل خليج في المغرب والوحيد الذي يمكن لأسطول من السفن الحربية أن يرسو فيه بأمان: في الصيف، نادراً ما يكون البحر هائجاً، على الرغم من أن الأمواج تسبب اهتزازات قوية، يمكن إلقاء المرساة على عمق 10 إلى 12 ذراعاً، وقاعه من الرمل والحصى، ممزوج ببعض الصفائح الصخرية التي لا ينبغي إلقاء المرساة عليها؛ ولكن بشكل عام، فإن المرسى جيد. في فصل الشتاء، لا يكون المرسى آمناً، حيث تهب عليه رياح عاتية من البحر. يجب على السفن التي تدخل أو تخرج من المرسى أن تحذر في جميع الفصول من ممر رملي (الصخور المغطاة بالرمال) يقع في قاع الميناء.

بصرف النظر عن المدفعية الموجودة في المكان وخارجه، يتم الدفاع عن الخليج بواسطة خمس بطاريات، ثلاث منها محمية عند الممر بواسطة حواجز حجرية. وهي، بدءًا من الشرق، برج المنار، بالقرب من البرج الذي يستخدم كنقطة مراقبة في الرأس الذي يحمل نفس الاسم أو رأس ملاباطا؛ وداخل الخليج، برج المريسة، برج الغندوري، برج العربي السعيدي، برج السواني؛ وهذا الأخير حصن مبني على الرمال على مستوى طنجة البالية، على شاطئ البحر مباشرة. هذه البطاريات المسلحة بـ 4 إلى 10 مدافع ذات رماية منخفضة، يمكن أن تكون فعالة للغاية، إذا كانت القطع في حالة جيدة ويتكلف بها مدفعيون ماهرون. إلى الغرب من المدينة وعند سفح المنحدر الذي تعلوه القصبة، يوجد حصن آخر مزود بست مدافع مع دعامة ترابية، وأبعد قليلاً، بالقرب من النهر الصغير المسمى بنهر اليهود[102]، توجد بطارية ثانية مزودة بـ 12 مدفعاً تحمي مدخل الميناء من جهة رأس سبارطيل[103].

أثناء قصف طنجة عام 1844، تعرضت بطاريات الخليج لأضرار بالغة. وبطارية السواني على وجه الخصوص تم تدميرها بالكامل.

---

[102] تتميز المرتفعات المحيطة بنهر اليهود بانحدارها الملحوظ، الذي يمكن رؤيته حتى في الليل، عندما يكون الطقس صحوًا، وهو ما يشكل نقطة مراقبة ممتازة لخليج طنجة. Vincendon-Dumoulin و Ph. de Kerhallet، Manuel de la navigation dans le Detroit de Gibraltar.

[103] Baudin, Manuel du pilote de la Méditerranée. — Pourcet, المرجع السابق.

الفصل الثالث

أصيلة، العرائش

الفقرة الأولى

على بعد أربعة أميال من طنجة، يقع رأس سبارطيل، أحد أبرز النتوءات على الساحل الأفريقي. تذكره جميع الوثائق البحرية في العصر الوسيط وتطلق عليه نفس الاسم (سبارتيلو، إسبارتيس كافو دي سبارتيللي، كاو سبارت). وهو رأس أشبرتيل عند البكري، حيث كان يوجد في عصره مسجد وزاوية مع آبار مياه عذبة. يبدو أن هذا الاسم قد طواه النسيان اليوم: فالمغاربة لا يعرفون رأس سبارطيل إلا باسم طرف أشقار. وهو مكون بالكامل من حجارة الصخر الرملي، ويبلغ ارتفاعه فوق مستوى سطح البحر 317 متراً. وتوجد فيه كهوف واسعة كانت موجودة في عهد الرومان، ويُستخرج منها، الآن كما في الماضي، كمية كبيرة من أحجار الرحى لطحن الحبوب.

رأس سبارطيل هو النتوء القديم المغطى بالكروم، روس خيرانيم عند الفينيقيين ورأس أمبيلوسيا عند بومبونيوس ميلا، والذي يؤدي نفس المعنى[104]. وفقًا لتقرير الجغرافي الروماني، كانت إحدى كهوف الجبل مكرسة للإله ملكار أو هرقل الذي كان، كما هو معروف، إله التجارة لدى الفينيقيين والقرطاجيين.

لا تنسى الخريطة البحرية لعام 1669 أن تذكر هذه النقطة الشهيرة. فهي تخبرنا أنه "أمام الرأس، يوجد مرسى للسفن، على بعد بضعة أميال من برج مهدم". لكنها تضيف أن "أولئك الذين يبحرون في هذه المياه يجب أن يحذروا من العبور، لأن الرياح هناك تكون شديدة في الغالب والبحر هائجًا للغاية". هذا المرسى هو بلا شك نفسه الذي ذكره الملازم أرليتي: "إلى الجنوب من الرأس، يقول، يمتد مصب النهر بعيدًا في البحر، ويوجد فيه مرسى ممتاز، قاع من الطين والرمل محمي من الرياح الشرقية "[105]. في الخرائط الحديثة، يحمل اسم شاطئ جيريمياس. عادة ما تأتي السفن إلى هذا المرسى للاحتماء قبل دخولها البحر الأبيض المتوسط، وتنتظر هناك، حتى تتغير الرياح لتتمكن من عبور المضيق[106]. في سنة 1864، تم بناء منارة في أقصى طرف رأس سبارطيل.

[104] الرأس الذي يمثل حدود الساحل الأطلسي، والذي يسميه الإغريق أمبيلوسيا أو أفري، ولكن بكلمة تنقل المعنى نفسه.

[105] Description de la côte d'Afrique, depuis le cap Spartel jusqu'au cap Bojador, 1835.

[106] Vincendon-Dumoulin et Ph. de Kerhallet, Manuel de la navigation dans le détroit de Gibraltar p. 88.

الفقرة الثانية

وراء طرف أشقار، يتجه الساحل مباشرة نحو الجنوب الغربي، وباستثناء بعض الرؤوس الرملية، لا يوجد حتى أصيلة سوى شاطئ مقفر وجاف، مع تلال منخفضة تنحدر برفق نحو البحر. تسمي خريطة مكتبة بينيلي وخريطة أندريا بيانكو إحدى هذه الرؤوس باسم أركو أو أوكور.

تشير هذه الخريطة البحرية الأخيرة إلى نقطة أخرى على الساحل في نفس المنطقة، على بعد حوالي ستة أميال شمال أصيلة، تسمى أسيف. وهي نهر الحاشف الذي كان مصبه الواسع والعميق، المعروف باسم غريفة، يستخدم آنذاك كمرسى تجاري. يخبرنا المسافرون المعاصرون أنه لا يزال يُقام حتى اليوم، كل يوم أحد، سوق على الضفة اليسرى للنهر، يتوافد عليه عدد كبير من أمازيغ المناطق المجاورة. المكان الذي يجتمعون فيه يسمى سوق الأحد. خريطة أندريا بيانكو البندقي هي الوحيدة التي تشير إلى مرسى أسيف الصغير، وعلينا أن نعترف أنه كان يقصده بشكل خاص التجار المنتمون الى هذه الأمة والذين كانوا يرتادون طنجة للتجارة.

على الساحل، بالقرب من مصب النهر، تقع قرية تاهدارت التي كانت، إذا صدقنا البكري، في القرن الحادي عشر «بلدة كبيرة ذات منازل مبنية بشكل جيد». في سنة 1683، أسس فيها بعض تجار مرسيليا محطة تجارية، ومن هناك كانوا ينقلون بضائعهم إلى داخل البلاد على ظهور الجمال والبغال[107]. وفقًا لتقرير رينو، كان موقع أدمركوري، الوارد في مسالك أنطونيوس، يوجد بالقرب من تاهدارت. وقد شاهد ديفيدسون أطلال هذا الموقع الروماني القديم. ويقول إنها أطلال كبيرة، ويشير بشكل خاص إلى وجود مسرح دائري محفوظ جيدًا[108].

الفقرة الثالثة

بعد تاهدارت، نجد أسيلا أو أصيلة، كما يطلق عليها عادة. يذكر الأطلس الكتالوني لفيرير وجميع الخرائط البحرية القديمة، باستثناء خريطة بيزا وخريطة أندريا بيانكو، هذا المرسى الذي كان ذا أهمية في ذلك الوقت، على الرغم من مرساه السيئ. يشير باتيستا أغنيسي ومؤلف دليل الطرق البحرية لمكتبة بينيلي إلى النهر الذي يجري شمال المدينة ويحمل نفس الاسم.

يخبرنا بالدوتشي بيغولوتي أن تجار البندقية والبيزانيين والجنويين كانوا يزورون أصيلة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر[109]. كانوا يشترون هناك جلود الماعز والصوف، وخاصة القمح والشعير، عندما كان التصدير مسموحًا به. كانت هذه المدينة معروفة جيدًا لدى السفن المسيحية. يتحدث ابن حوقل والبكري عن العديد من آبار أصيلة الواقعة خارج الأسوار والتي كانت توفر مياهًا نقية جدًا وذات مذاق لذيذ.

---

107 Relation de la captivité du sieur Mouette, p. 306.

108 Davidson's African journal, 1835-1836.

109 Pratica della mercatura p. 291 (ممارسة التجارة).

الفقرة الرابعة

في سنة 1471، قرر ملك البرتغال ألفونسو الخامس احتلال أصيلة. حيث كانت الفرصة مواتية: كانت الحرب الأهلية تعصف بالبلاد. غادر لشبونة يوم 13 غشت بأسطول من 200 سفينة، كبيرة وصغيرة، تحمل 20000 جندي، ووصل إلى أصيلة يوم 16 من الشهر نفسه. في اليوم التالي، أمر "أشجع قائدين في جيشه"، وهما كونت ميالفا وكونت موسانتو، بالنزول إلى البر لاستطلاع المكان الأنسب لنصب المدافع المخصصة لقصف المدينة.

كانت هذه العملية أصعب مما كان متوقعًا في البداية؛ بسبب اضطراب البحر والرمال التي تسد مدخل المرسى. عندما رأى الملك أن الكونتان لا يستطيعان عبور الحاجز والنزول، قفز مع ابنه الأمير د. جواو في زورق كان جاهزًا. واقتدى به جميع من بقوا على متن السفن، فسارعوا إلى القفز في القوارب للحاق به. تمكنوا أخيرًا من التغلب على قوة التيار والوصول إلى الشاطئ. لكن ذلك لم يحدث دون خسارة العديد من القوارب مع من كانوا على متنها: فقد غرق أكثر من 200 رجل.

لم يقم المغاربة، لسبب غير معروف، بأي تحرك لمقاومة الإنزال. كما سمحوا للبرتغاليين بتحصين معسكرهم واختيار موقع مناسب لمدافعهم. دون تضييع أي وقت، أمر الملك بقصف المكان بقوة، وبعد ثلاثة أيام، تم إحداث ثغرة فيه.

وبحلول يوم 24 غشت، مع بزوغ الفجر، شوهدت راية بيضاء ترفرف على أحد أبراج القلعة: كان السكان يرغبون في الاستسلام. فتلقوا إشارة أن بإمكانهم الخروج بأمان، وتقدم أحد زعماء المدينة المغاربة إلى مواقع الحراسة التابعة للكونت مونسانتو، فقام الأخير باصطحابه لمقابلة الملك للتفاوض بشأن استسلام المدينة. لكن الجنود المتعطشين للغنائم قرروا ألا يكون هناك استسلام. وأثناء المفاوضات، قام بعضهم دون أية أوامر بشن هجوم واقتحام الثغرة. فاجأ ذلك المغاربة، فهرعوا لصدهم، لكنهم لم يتمكنوا من طردهم من الأسوار.

عند سماع هذا الخبر، هبّ الجيش كله. الملك، الذي أُبلغ بما يجري، سارع بنفسه لمساعدة رجاله. وبما أن الثغرة كانت صغيرة جداً مقارنة بعدد المهاجمين، فقد نصبوا السلالم وتسلقوا الأسوار. دخل الملك والأمير د. جواو المدينة من أحد البوابات التي فتحت لهم. تراجع المغاربة من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل، وحصنوا أنفسهم في المسجد الجامع وفي القلعة. كانوا يعلمون أنه لا أمل لهم في الرحمة أمام جيش غاضب، فدافعوا عن أنفسهم بشجاعة اليائسين. تم الاستيلاء على المسجد الجامع أولاً، وقُتل جميع الذين لجأوا إليه حتى آخرهم. ثم تم اقتحام القلعة. لقي 2000 مسلم حتفهم، وأُسر 5000 آخرون. وكان من بين الأسرى امرأتان وابن وبنت سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي، الذي كان منشغلاً بالحرب ضد الشريف محمد العمراني. كما استعاد خمسون من العبيد المسيحيين الذين كانوا في المدينة حريتهم، وقدرت الغنائم بـ 800,000 دوكات.

كانت انتصارًا باهرًا، كما تقول السجلات التاريخية؛ لكن البرتغاليين دفعوا ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. قُتل الكونت ماريالفا والكونت مونسانتو، الأول أثناء الهجوم على المسجد، والثاني أثناء اقتحام القلعة. حزن الملك بشكل خاص على الكونت ماريالفا. يُروى أنه عندما دخل المسجد الجامع، الذي كان القساوسة قد عمدوه للتو ونقلوا إليه جميع القتلى، أراد أن يمنح بنفسه لقب فارس للأمير د. جواو فوق نعش الكونت.

عندما علم السلطان محمد الشيخ الوطاسي بخبر وصول البرتغاليين، سارع إلى التخلي عن حصار مدينة فاس، حيث كان يحاصر منافسه، ليهرع إلى إنقاذ مدينة أصيلة، لكنه وصل متأخراً: فقد سقطت المدينة وأسر أفراد عائلته. وفي الوقت نفسه، علم أن البرتغاليين قد استولوا على مدينة طنجة. وقد أدرك السلطان الوطاسي عدم قدرته على خوض حرب ضد أجنبي دون أن يعرض نفسه لخطر منح النصر للشريف محمد العمراني الذي ينازعه العرش، ولرغبته في تحرير نسائه وأطفاله، أرسل رسولاً إلى الملك ألفونسو يطلب مقابلته. وبعد أن أرسل له الملك وثيقة أمان، توجه إلى معسكر المسيحيين برفقة 300 فارس. تم توقيع هدنة مدتها عشرين عامًا بين الطرفين، ووافق السلطان على الاعتراف بسيادة البرتغال على سبتة والقصر الصغير وأصيلة وطنجة، ووعد ألفونسو من جانبه بإعادة عائلته إليه مقابل جثة الأمير فرناندو، الذي مات أسيرًا لدى المغاربة عام 1443.

بعد أن أنهى هذه المهمة وسلّم حكم أصيلة إلى د. إنريكي دي مينيسيس، عاد ملك البرتغال إلى لشبونة، حيث وصل يوم 17 سبتمبر: لم يدم غيابه سوى ستة وثلاثين يوماً. تروي السجلات التاريخية أنه، تخليداً لذكرى هذه الحملة المظفرة، أهدى العذراء، في دير إيفيرا، تمثاله الفضي الذي يصوره على صهوة جواده.

في سنة 1508، توفي السلطان محمد الشيخ الوطاسي، وخلفه ابنه محمد. ولد هذا الأمير في أصيلة، وهو نفسه الذي كان قد أسره الملك ألفونسو. وكان ينتظر منذ زمن طويل أن يصبح سلطاناً على فاس ليطرد المسيحيين من مسقط رأسه. في 19 أكتوبر، توجه إلى المدينة التي لم يكن فيها سوى 400 جندي من الحامية. بعد ثلاثة أيام، تمكنت المدفعية الوفيرة التي أحضرها السلطان محمد معه من إحداث ثغرة كبيرة في السور، وتم الاستيلاء على أصيلة بعد هجوم عنيف، على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها البرتغاليون. لم يكن لدى القائد د. فاسكو كوتينيو، كونت بوربا، سوى الوقت الكافي للاحتماء في القلعة مع مائة جندي. لحسن الحظ، كان جواو دي مينيسيس يمر في ذلك الوقت بالقرب من طنجة مع أسطول برتغالي. بعد أن أبلغه بعض الجنود الذين هربوا على متن سفينة صغيرة بما كان يحدث، سارع إلى المكان ونجح، بعد معركة شرسة، في إدخال 500 رجل إلى القلعة.

بفضل هذه التعزيزات، شنّ كونت بوربا هجوماً واستعاد جزءاً من المدينة. لكن هذه المساعدة، التي كانت كافية لمواصلة المقاومة، لم تكن كافية لاستعادة أصيلة بالكامل. كان الملك الإسباني فرناندو الكاثوليكي هو من أنقذ هذا الموقع المسيحي. كان موجودًا في ذلك الوقت في الأندلس، وعندما علم بالخطر الذي يهدد أصيلة، أعطى الأمر للكونت بيدرو نافارو والحاكم العسكري لشريش بالذهاب لنجدتها بأي ثمن. أربك وصول الأسطول الإسباني سلطان فاس الذي، بعد أن فقد الأمل في النصر، رفع الحصار على عجل.

بعد ثلاث سنوات، ظهر مرة أخرى أمام أصيلة؛ لكن البرتغاليين كانوا قد اتخذوا احتياطاتهم؛ فقد كان المكان محصناً بحامية قوية ومزوداً بالمؤن والذخيرة. بعد أن أبلغه جواسيسه أن المسيحيين في حالة استنفار وأن المدينة قادرة على الصمود في وجه حصار طويل، انسحب السلطان محمد، بعد أن استمع إلى آراء قادته، دون القيام بأي محاولة.

في سنة 1516، تعرضت أصيلة لهجوم ثالث من قبل سلطان فاس الذي أقسم ألا يعود إلى عاصمته إلا بعد انتزاع المدينة التي ولد فيها من أيدي الكفار. في الأيام الأخيرة من شهر أبريل، نصب خيمته تحت أسوار المدينة مع جيش ضخم[110]. وما إن وصل حتى بدأ أعمال الحصار. في غضون أيام قليلة، تم حفر

[110] 70,000 من المشاة و 30,000 من الفرسان، كما ذكر مارمول.

الخندق بفضل العديد من الحفارين الذين جمعهم السلطان محمد؛ ثم تم وضع المدفعية في الأماكن الأنسب. لكن الحامية المسيحية صمدت؛ فقد كانت تعلم أنها لن تنتظر طويلاً حتى تصلها النجدة. عند أول إشعار بخروج ملك فاس، أرسل الحاكم، دون جواو كوتينيو، رسولاً على عجل إلى لشبونة. قصفت المدفعية المغربية الجدار ليلًا ونهارًا دون جدوى، ولم تتمكن من إحداث ثغرة فيه؛ حتى الحفر لم يكن كافيًا لهدمه، لأن البرتغاليين حرصوا على تعزيزه بخندق مزدوج. في هذه الأثناء، وصلت التعزيزات المنتظرة: كانت تتألف من 12 سفينة شراعية، مع عدد كبير من النبلاء. تذكر السلطان محمد القسم الذي قطعه على نفسه، فلم يرغب في رفع الحصار في البداية؛ ولكن يوم 3 يوليو، بعد أن علم أن ملك البرتغال قد أرسل أسطولًا آخر مكونًا من 30 سفينة، اضطر أخيرًا إلى العودة إلى فاس.

الفقرة الخامسة

البرتغاليون، الذين دافعوا عن أصيلة، لم يحتفظوا بها لفترة طويلة؛ فقد سلموها بأنفسهم للمغاربة سنة 1553. يذكر مارمول أن سبب التخلي عن المدينة هو سوء حالة المرسى وصعوبة إرسال المساعدة إليها عن طريق البحر؛ لكن قلة الأرباح التي كان يحققها بلاط لشبونة من أصيلة ساهمت إلى حد كبير في إخلائها. كان البرتغاليون في الوقت نفسه مشغولين للغاية في الهند، ولم يكونوا يذهبون كثيرًا إلى المغرب، حيث كانت الحظوظ تسعدهم بدرجة أقل.

في سنة 1577، عندما قرر ملك البرتغال، د. سيباستيان، الذهاب إلى إفريقيا، سلمه السلطان المطرود من فاس مدينة أصيلة، بعد أن وعده بإعادته إلى العرش. ونعرف جميعًا كيف انتهت هذه الحملة العسكرية. فقد أسفرت في نهاية المطاف عن انتقال تاج البرتغال إلى رأس ملك إسبانيا، فيليبي الثاني. كان من أول أعمال هذا الأمير، الذي كان قد قرر العيش في وئام مع سلاطين المغرب، التخلي عن الإنجاز الوحيد الذي حققه الملك سيباستيان التعيس. وقد حصل هذا الإخلاء الثاني سنة 1583[111].

الفقرة السادسة

منذ ذلك الوقت، لم تتوقف مدينة أصيلة عن التدهور. لا يتجاوز عدد سكانها اليوم 600 نسمة، وبالكاد تستحق أن تسمى مدينة. جميع المنازل متهدمة. لم يقم السكان حتى بإعادة بناء القلعة التي شيدها البرتغاليون: فالنخيل يخفي جدرانها وينمو داخل أسوارها. لكن إذا كان سكان مدينة أصيلة لا يهتمون بإعادة بناء منازلهم، فإنهم في المقابل يحرصون على العناية بأضرحة أولياءهم، التي تبرز قبابها المطلية باللون الأبيض بشكل لافت وسط الأنقاض المنتشرة في كل مكان. يوجد حول المدينة العديد من البساتين، والمنطقة غنية بالأشجار. كما أن البحر غني بالأسماك في ضواحي أصيلة؛ عندما كان الملازم أرليت هناك، شاهد على الساحل عددًا كبيرًا من الفلوك الإسبانية والبرتغالية وهي تصطاد الأسماك.

[111] هذه التواريخ المختلفة لأول إخلاء لمدينة أصيلة، واحتلالها من قبل الملك د. سيباستيان، والانسحاب النهائي منها، هي معلومات أوردها سواريز مونتانيز. أما مارمول فلم يتطرق إليها.

من السهل العثور على المرادف القديم لكلمة أصيلة: فقد احتفظت المدينة الحديثة باسمها الأمازيغي. وحلت محل مدينة زيليا أو زيليس القديمة، التي ذكرها جميع الجغرافيين الإغريق واللاتين. ومن المعروف أن القرطاجيين كانت لهم معاملات تجارية على الساحل الغربي لأفريقيا. يخبرنا بلينيوس أن الإمبراطور أغسطس قيصر أطلق على زيليس اسم جوليا كونستانسيا، ومنحها في الوقت نفسه لقب مستوطنة؛ ولكن يبدو أنها فقدت هذا اللقب لاحقًا، لأنها لا تظهر بهذا الاسم في قوائم بطليموس وفي مسالك أنطونيوس.

الفقرة السابعة

بعد أصيلة، يستمر الساحل في التوجه نحو الجنوب الغربي، مع نفس التباين الرتيب بين الرؤوس الرملية والشواطئ الجرداء والحزينة. يشير الملازم أرليت إلى إحدى هذه الرؤوس، وهي أعلى من غيرها وملفتة للنظر. بغض النظر عن الزاوية التي تنظر إليها منها، فهي على شكل مخروط وتستخدم من قبل البحارة للتعرف على هذا الجزء من الساحل. يطلق عليها بالعربية اسم الحافة البيضاء[112].

على بعد مسافة قصيرة، نكتشف العديد من الآثار التي تغطي تلة صغيرة تقع على الضفة اليمنى لنهر اللوكوس. هذا الموقع، الذي لم يذكره أرليت، ورد ذكره في جميع خرائط الجغرافيين القدماء[113]. يطلق عليها الأطلس الكتالوني اسم توسيموسي، بينما يطلق عليها الملاحون الآخرون اسم تاكسيموسي أو توسيموسي. من السهل التعرف على هذه المدينة في اسم تيكميس أو تيشميس الذي أطلقه عليها الجغرافيون العرب في العصر الوسيط، والذين حددوا موقعها على بعد ميل واحد من البحر، على ضفة وادي سفيرديد أو سيكرد، وهو المجرى السفلي لنهر اللوكوس.

كانت تيكميس، التي كانت قد اندثرت في زمن ابن حوقل والبكري، مدينة قديمة جداً، وهي نفس المدينة التي أطلق عليها الرومان اسم ليكس أو ليكسوس[114]. ولا شك أن تيكميس هو الاسم الأمازيغي، وليكس هو الاسم القرطاجي أو اللاتيني. لا يُعرف أصلها الحقيقي. يعود تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ. يذكر بلينيوس أنها كانت مقر إقامة العملاق الرهيب عنتي، ويضع حديقة هيسبيريدس (بنات المساء أو حارسات التفاح) في محيطها. ما هو مؤكد هو أن ليكس كانت في ذلك الوقت أكثر الأماكن أهمية على الساحل الغربي.

يخبرنا إسترابون أن سفن غاديس (قادس) كانت ترسو بانتظام في ليكس، إما للتجارة أو للتزود بالمؤن قبل مواصلة طريقها على طول الساحل. تم رفع ليكس إلى مرتبة مستوطنة من قبل الإمبراطور كلاوديوس، الذي أعاد إعمارها وتوسيعها.

---

[112] Mancha blanca في الخرائط الإسبانية.

[113] لا يظهر على خرائط فيسكونتي وباتيستا، مما يشير إلى أن التجار الجنويين لم يكن مسموحًا لهم بالتجارة هناك.

[114] مستوطنة ليكس في مسالك أنطونيوس.

الفقرة الثامنة

على الضفة اليمنى لنهر اللوكوس، توجد مدينة العرائش. وهي تقع على المنحدر الذي يشكل الطرف الجنوبي لمصب النهر. تذكرها جميع الخرائط القديمة: الأطلس الكتالوني يسميها Larax وباتيستا أغنيسي Laraza؛ أما الخرائط الأخرى فتسميها Laraxi. العرائش مدينة حديثة. لم يذكرها الجغرافيون العرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وبما أنهم قدموا الكثير من التفاصيل، ولا سيما البكري، عن كل هذا الجزء من الساحل، فإننا نعتقد أنها لم تكن موجودة في عصرهم. ومن المرجح أنها تأسست في أوائل القرن الثالث عشر على يد قبيلة بني عروس الأمازيغية، التي منها استمدت اسمها[115].

يروي روض القرطاس أنه في عام 1270، استولى مسيحيو الأندلس على مدينة العرائش. وقتلوا جميع الرجال، واستعبدوا النساء والأطفال، ثم غادروا بعد أن نهبوا المدينة وأحرقوها[116]. في العصر الوسيط، كان تجار جنوة والبندقية يزورون مدينة العرائش. كانوا يحملون معهم أقمشة من فرنسا وإيطاليا، وحرير، وملاءات، وخشب منقوش، ومصنوعات حديدية، وزجاجيات، ومرجان، ويحصلون في المقابل على صوف، ولحاء، وبعض الجلود، وقليل من القطن. لم يكن حجم التجارة التي كانوا يمارسونها كبيرًا: لم يكن ميناء العرائش مهمًا بالنسبة لهم سوى كنقطة إنزال، حيث كانوا ينقلون بضائعهم من هناك إلى مكناس وفاس. يقول دافيلي، الذي كتب في عام 1640: "إن التجارة الرئيسية لسكان العرائش في هذا الوقت هو الفحم الذي يبيعونه بواسطة قوارب صغيرة تتوجه إلى طنجة وأصيلة. حتى أن المغاربة لديهم مثل شعبي في هذا الصدد: للتعبير عن أن شيئًا ما يتجاوز مظهره قيمته الحقيقية، يقولون إنه يشبه مركبًا من العرائش الذي، عند رؤيته من بعيد بأشرعته القطنية، يوحي بحمولة غنية، ولكنه في الواقع محمل بالفحم فقط".

الفقرة التاسعة

عندما استولى ملك البرتغال ألفونسو الخامس على أصيلة سنة 1471، هرب سكان العرائش، مثلهم مثل سكان طنجة، من مدينتهم؛ لكن البرتغاليين اكتفوا بالاستيلاء على هذه المدينة دون أن يهتموا بالعرائش. وبعد ست سنوات، حاولوا الاستقرار على جزيرة صغيرة تقع عند مدخل النهر، خلف الحاجز الرملي؛ وكان هدفهم بناء حصن هناك، «معتمدين على هذا الحصن للسيطرة على جميع المناطق المجاورة». لكن ملك فاس سارع لنجدة العرائش ولم يترك لهم الوقت لتحصين أنفسهم في جزيرة اللوكوس. ولإخراجهم من هذا الموقع، استخدم حيلة فريدة؛ ألقى في النهر كمية كبيرة من جذوع الأشجار التي تراكمت على الضفة، وسرعان ما هددت بإغلاق الممر تمامًا. خشي المسيحيون أن يعلقوا في الجزيرة، فسارعوا إلى العودة إلى سفنهم والخروج من النهر[117].

في سنة 1491، أعاد الناصر، شقيق سلطان فاس، توطين مدينة العرائش وحصّنها. لكن ذلك لم يمنع حاكم أصيلة، دون جواو دي مينيسيس، من القدوم بعد بضع سنوات لمهاجمة عدة سفن تطوانية كانت قد لجأت

---

[115] العرائش متاع بني عروس، كروم بني عروس.
[116] Histoire des souverains du Maghreb, p. 566.
[117] ليون الأفريقي (الحسن الوزان)، الجزء الثالث.

إلى ميناء المدينة، تحت نيران مدافع المدينة نفسها. يقول مارمول: "كان قراصنة هذه المدينة يلجؤون في كثير من الأحيان إلى نهر العرائش للتزود بالمؤن أو تجديد أطقمها بالاستعانة بالمغاربة من سكان المنطقة. في شهر يوليو 1504، خرجت سفينة القبطان التابعة لحاكم تطوان وخمس سفن شراعية من العرائش للإبحار عند مدخل المضيق، واستولت على ثلاث سفن شراعية برتغالية كانت تحمل مؤنًا إلى المدن الحدودية في إفريقيا. سعداء بهذه الغنيمة الوفيرة، سارع القراصنة بالعودة إلى العرائش، وبعد أن سحبوا سفنهم إلى الشاطئ، بدأوا في الاحتفال بانتصارهم.

"علم قائد أصيلة، د. جواو دي مينيسيس، بأسر السفن الثلاث، فانطلق في نفس الليلة مع أفضل جنوده على متن أربع سفن شراعية، وتوجه إلى العرائش، بعد أن أرسل خمسة فرسان براً وقارباً على طول الساحل، لاستطلاع المكان الذي أخفى فيه المغاربة سفنهم. وعندما أصبح على علم تام بكل شيء، توجه عند الفجر إلى مصب النهر. كانت سفينة حاكم تطوان والمراكب الشراعية على اليابسة تحت حماية نيران أحد أجنحة المدينة، ولم يكن من السهل الوصول إليها؛ إلا أن ذلك لم يوقف البرتغاليين. عندما تعرف المغاربة الذين كانوا يحرسون المكان على الأسطول المسيحي، أطلقوا الإنذار على الفور وبدأوا في إطلاق نيران مدافعهم. أمر مينيسيس إحدى سفنه، التي كان قد ملأها بأكياس من الصوف من الخارج والوقوف في مواجهة الممر. وبما أن المد كان مرتفعًا، عبرت السفينة الشراعية الحاجز بسهولة، وعبَرتها السفن الثلاث الأخرى، التي كانت تحميها، دون أن تتعرض لأي ضرر، على الرغم من النيران الكثيفة التي أطلقت عليها من الحاجز ومن السفينة المبطنة. دون تضييع أي وقت، نزل المسيحيون وهاجموا المغاربة بشراسة. وبعد أن دفعوهم إلى داخل المدينة، أشعلوا النار في سفينة حاكم تطوان، ثم قاموا بسحب سفنهم الخمس مع اثنين من سفن لشبونة التي استولى عليها القراصنة إلى عرض البحر، وأخذوها إلى أصيلة.

الفقرة العاشرة

في سنة 1579، حاول ملك إسبانيا فيليبي الثاني الحصول على تنازل السلطان أحمد المنصور عن مدينة العرائش، الذي كان قد تخاصم مع أتراك الجزائر. حتى أن سفارة أرسلت إلى المغرب لإبرام هذه الصفقة[118]. واتُفق على أنه في حالة قيام أتراك الجزائر بغزو المنطقة، سيساعد فيليبي السلطان بمدافعه وجيوشه، وفي المقابل سيسلمه هذا الأخير مدينة العرائش مقابل هذه الخدمة. لكن أتراك الجزائر، الذين علموا على الأرجح بهذه المفاوضات، عقدوا صلحاً مع السلطان، ولم تتم عملية التسليم.

بعد وفاة السلطان أحمد المنصور سنة 1603، تنازع أبناؤه الأربعة على خلافته. حصل الأكبر، محمد الشيخ المأمون، على مساعدات مالية من ملك إسبانيا، فيليبي الثالث، فسلمه العرائش كضمانة لهذا التحالف. في ديسمبر 1610، أتى كونت سان جيرمان لاستلام الموقع، حيث "كان أول ما فعله هو بناء دير للرهبان الفرنسيسكان".

استمر احتلال الإسبان للعرائش 79 عامًا. أنفقوا الكثير من المال لتحصينها؛ ولكن على الرغم من أنها لم تكن تبعد سوى مائة كيلومتر عن سواحل إسبانيا، لم يتمكنوا أبدًا من الاستفادة منها بسبب القتال المستمر مع المغاربة. في سنة 1689، هاجم السلطان إسماعيل مدينة العرائش واستولى عليها بعد حصار دام

118 تحتفظ المكتبة العامة للحكومة بنسخة غير منشورة من هذه السفارة (المحفوظات الإسبانية، المجلد الرابع، رقم 4). هذا المستند غريب للغاية.

خمسة أشهر. يقول بريثويت: "لم يحقق المغاربة هذا الانتصار إلا بفضل خيانة الرهبان الذين لم يستطيعوا تحمل الجوع. فهم الذين تفاوضوا على استسلام المدينة، بشرط ألا تمس حياتهم وألا يُستعبدوا، وكذلك العديد من كبار الضباط. أما بقية السكان فقد استُعبدوا، وتقلد معظمهم العمامة [119]".

الفقرة الحادية عشرة

منذ ذلك الوقت، احتفظ المغاربة دائمًا بمدينة العرائش، على الرغم من أن هذه المدينة تعرضت لتهديدات متكررة من أساطيل القوى الأوروبية. في سنة 1765، استولى قراصنة سلا على عدة سفن فرنسية، فطالب بلاط فرساي، الذي كان يتفاوض في الوقت نفسه مع السلطان محمد بن عبد الله بشأن معاهدة سلام وتجارة، بإعادة هذه السفن وطواقمها. وتردد السلطان في تلبية هذا الطلب، فقام أسطول فرنسي بتدمير سواحل الإمبراطورية الشريفة. وبعد قصف سلا ورباط، توجهت إلى العرائش.

نقتبس باختصار من بيدي دو مورفيل، ضابط البحرية، رواية قضية العرائش، كما أطلق على العملية الجريئة التي تم تنفيذها عند مدخل النهر بأمر من قائد الأسطول دوشافو. هذه العملية، التي كانت بعيدة كل البعد عن النجاح الذي حققه حاكم أصيلة سنة 1504، كانت لها عواقب وخيمة.

يوم 25 يونيو، رسا الأسطول الفرنسي أمام مدينة العرائش. في ليلة 26 إلى 27، وبعد قصف المدينة والحصون طوال اليوم، أرسل قائد الأسطول دوشافو ثمانية زوارق لإحراق سفينة عند مدخل النهر. اقتربت الزوارق من السفينة دون مقاومة، وبعد إضرام النار فيها، عادت دون أن يصاب سوى رجل واحد بجروح طفيفة. للأسف، تمكن المغاربة الذين هرعوا إلى المكان من إطفاء الحريق. أراد الفرنسيون القيام بمحاولة جديدة على الفور، لكن انخفاض المد كان عائقًا أمام رغبة الجميع، واضطروا إلى تأجيلها إلى اليوم التالي.

في الساعة الثانية من يوم 28، بدأنا مرة أخرى بقصف مدينة العرائش. في الساعة الرابعة، قام السيد بورغار، المسؤول عن الحملة، بتعيين القوارب التي كانت ستحرق سفن العدو الراسية في الميناء. وبعد أن تم إعداد كل شيء، انطلقنا وفقًا للترتيبات المتفق عليها. وفي وقت قصير وصلنا إلى الحاجز، الذي عبرناه بنجاح، دون أن نلاحظ الأمواج العاتية التي عادة ما تسود هناك ودون أن نواجه أي مقاومة من القلعة والحصون التي تحمي مدخل الميناء، والتي اضطررنا إلى المرور تحتها على مسافة نصف مدى البندقية. وبمجرد أن تجاوزت القوارب الحصن الصغير الواقع عند مدخل الميناء، أطلقت النار على مجموعات من المغاربة المختبئين خلف الصخور التي تحيط بمصب النهر.

اقتربت قوارب الفرقة الأولى من السفينة التي حاولوا إحراقها في الليلة السابقة، بينما توجه السيد دي كاميران نحو شباك صغير راسي على بعد مسافة قصيرة من الشاطئ. وبعد أن تم تثبيت السفينة دون قتال، بدأوا في إشعال النار فيها، فاشتعلت النيران بشدة لدرجة أن الذين صعدوا على متنها اضطروا إلى العودة إلى القوارب بأسرع ما يمكن.

في الوقت نفسه، كانت الفرقة الثانية بقيادة الملازم البحري دي كيرغاريو تقترب من الضفة الأخرى للنهر التي تشكل في هذا المكان غورًا، لإحراق شباك كبير أو بريغانتين كان المغاربة قد جنحو به على الشاطئ.

---

[119] Histoire des révolutions de l'empire de Maroc, 1731.

وقد استقبل المغاربة الزوارق بنيران متواصلة من وراء الكثبان الرملية التي تطل على الشباك. وبعد أن انتهى السيد دي بورغار من السفينة، أعطى الأمر لأربعة قوارب كانت معه بالتقدم بقوة التجديف لدعم الفرقة الثانية، عندما انضم إليه السيد دي كاميران في نفس اللحظة في زورق، وأخبره أنه أثناء محاولته الاقتراب من الشباك الصغير، قُتل تسعة رجال وأصيب عدد كبير بجروح، مما أجبره على التراجع. أجبر هذا العائق السيد دي بورغارد على تغيير خططه، وأمر المجدفين بالتوجه نحو الشباك الصغير. تسببت قوة التيار وقلة المساحة المتاحة للتحرك في بعض الصعوبات واستغرق تنفيذ هذه المناورة وقتًا طويلاً.

بينما كان هذا يحدث على الضفة اليمنى للنهر، استولى السيد كيرغاريو، مع الفرقة الثانية، أخيرًا على الشباك الكبير وأحرقه. كان يستعد للانضمام إلى السيد بورغار؛ ولكن بما أنه لم يتمكن من التواصل معه ولم يكن بإمكانه أن يدرك حقيقة الوضع، فقد اعتقد، عند رؤية السفينة وهي تحترق، أن السيد بورغار قد ابتعد فقط لكي يسمح له بالمرور ويدعم الانسحاب بأربع قوارب كانت أقل تضرراً من تلك المخصصة للفرقة الثانية. وبالتالي، توجه نحو الممر وكان محظوظًا بما يكفي لتجاوزه.

ومع ذلك، لم يتراجع المغاربة الذين كانوا على متن القارب الصغير؛ بل على العكس، شوهدوا يهرعون من جميع الجهات. خسرت القوارب الأربعة الكثير من ركابها: من الضفة المقابلة للنهر، كان العدو يهاجم السيد بورغار ورجاله من الخلف، مما أزعجهم كثيرًا. استعاد المغاربة أيضًا السيطرة على الشباك بعد أن قطعوا حباله، وساعدهم المد على الصعود به في النهر. عندما رأى السيد بورغار أن كل جهوده ذهبت سدى وأن عدد المغاربة يتزايد كل لحظة، وأن نصف رجاله قد سقطوا في المعركة، اضطر إلى التخلي عن المكان؛ لكن بقي عليه الخروج من الممر. تمكنت جميع قوارب الفرقة الثانية تقريبًا من عبور الممر؛ بينما ظل اثنان في الخلف يكافحان في تلك اللحظة لتجاوزه؛ لكنهما واجها صعوبة كبيرة في مقاومة المد.

أصبحت الحالة حرجة للغاية والوقت يداهمهم. لم يعد الأمر يتعلق بالقتال، بل بجمع كل القوى للسيطرة على التيار الذي كان يجرف القوارب الأربعة بعنف نحو أعلى النهر. جميع الرجال الذين كانوا على متنها، من ضباط وحراس بحريين وبحارة وجنود، على الرغم من إصابة عدد كبير منهم، اصطفوا على المجاذيف. ورأى المغاربة أنه لم يعد هناك ما يخشونه من نيران البنادق الفرنسية، فضاعفوا إطلاق النار، بل إن بعضهم رمى بنفسه في الماء حتى الخصر ليطلق النار من مسافة أقرب.

كانت القوارب تبذل جهوداً جبارة للوصول إلى مدخل الممر؛ لكن قوة التيار كانت تجرفها. ثلاثة منها أصبحت عاجزة عن مقاومة عنف المد بسبب فقدان معظم ركابها، فدفعتها الأمواج إلى الشاطئ وقتل جميع من كانوا على متنها أو استعبدوا. أما القارب المتبقي فاستمر في المقاومة، لكن الخروج أصبح أكثر صعوبة. لم يعد هناك سوى خمسة بحارة قادرين على التجديف. في ذلك الوقت، ركب المغاربة إحدى القوارب التي جنحت على الشاطئ، وتوجهوا صارخين نحو القارب الفرنسي. بعد إطلاقهم وابلًا من الرصاص أودى بحياة ثلاثة من آخر الرجال الأصحاء، اقتربوا منه في نفس اللحظة تقريبًا واستولوا عليه.

" هكذا، كما يقول بيدي دو مورفيل، انتهت هذه الحملة التي كان الجميع يتوقع لها نجاحًا كبيرًا. من المحتمل أن النتيجة كانت ستكون مختلفة تمامًا لو لم يكن علينا مقاومة تيار غيرعادي؛ لكن كتلة المياه التي دفعها المد والجزر ودخلت عبر ممر ضيق جدًا إلى نهر واسع جدًا في الداخل، شكلت عائقًا لم تستطع القوى البشرية التغلب عليه[120]."

---

[120] Relation de l'Affaire de Larache, Amsterdam, 1775.

كلفت معركة العرائش الفرنسيين أكثر من 200 رجل، من بينهم 30 ضابطًا أو جنديًا من البحرية. تم اقتياد 48 منهم عبيدا، ومن بينهم مؤلف قضية العرائش الذي كان في القارب الرابع. باستثناء اثنين، كان جميع الأسرى مصابين بجروح بدرجات متفاوتة.

الفقرة الثانية عشرة

في عام 1767، عندما استعاد بيدي دو مورفيل حريته، تم نقله إلى العرائش، وهذا ما قاله عن هذه المدينة: "العرائش مدينة صغيرة جدًا من حيث المساحة وأصغر بكثير من حيث العمران؛ لا يمكن أن ترى شيئًا أكثر بؤسًا وتدهورًا منها. أكبر جزء من المساحة التي تغطيها لا يقدم للناظر سوى أطلال، والباقي تشغله أكواخ ومنازل مبنية وسط أنقاض تلك التي دمرت. والمدينة، المحاطة بأسوار وخنادق، محصنة على الطراز الأوروبي وتحميها ثلاثة قلاع؛ لكن كل هذا يوجد في أسوأ حالة ممكنة. القلعة المبنية عند مصب النهر لا تزال تحمل اسم القديس أنطونيو الذي أطلقه عليها الإسبان؛ والثانية، حصن القديس خوان، تحمي أيضاً مدخل وداخل الميناء؛ والثالثة، وهي الأكبر وتسمى القديسة ماريا، تحمي المكان من جهة المناطق الريفية. ولهذا الغرض، تم تزويدها بخندق مزدوج وسور مزدوج؛ ولكنها الآن في حالة سيئة مثل القلعتين الأخريين."

لم تتغير مدينة العرائش. فهي اليوم كما كانت قبل قرن من الزمان. عندما ننظر إليها من البحر من مسافة بعيدة، تبدو حصونها وقصبة المدينة التي تطل عليها من الجنوب وصوامع المساجد العالية مهيبة إلى حد ما، لكن هذا الانطباع لا يدوم طويلاً: فسرعان ما ندرك أننا أمام كومة ضخمة من الأنقاض. "المدينة، المبنية بشكل غير منتظم، لا يوجد فيها منزل واحد لم يتهدم جزئياً، والفوضى التي تسود الشوارع تعطي فكرة عن مدى لا مبالاة سكانها[121]."

الفقرة الثالثة عشرة

يبلغ عدد السكان حوالي 3000 نسمة، منهم 250 يهوديًا. لا يقيم أي أوروبي في هذه البلدة؛ بل يبدو أن المسيحيين لا يحظون بقبول جيد فيها[122].

---

[121] بورسي، ملاحظة حول بعض موانئ المغرب. — «بالقرب من القصبة، يقول علي داي (رحلات في أفريقيا وآسيا، المجلد الأول) يوجد قبر للا منانة، وهي امرأة صالحة وولية المدينة. لم أستطع أبدًا أن أفهم التعقيدات الفكرية التي لطالما أثارتها في ذهني فكرة ولاية امرأة، مع استبعاد النساء من الجنة الذي أعلنه النبي ضمنيًا في سنته؛ لكن الله أعلم من البشر بهذا الأمر."

[122] فيما يلي رواية الملازم أرليت عن زيارته للحاكم، باشا منطقة الغرب. "لقد استقبلتني السلطات استقبالاً حسناً؛ حتى أنه تم توفير حرس شرف ليصطحبني إلى الحاكم، الذي استقبلني جالساً على سجادة ممدودة تحت سقيفة؛ ولكن على الرغم من أنه تجنب بعناية سؤالي عن سبب زيارتي، فقد لاحظت أنني أُثير قلقه بشكل واضح. كانت جميع حركاتي تخضع لمراقبة دقيقة. توسل إليّ اليهودي المسكين الذي كان يعمل كمترجم لي ألا أظهر أدواتي. بعد أن أعربت عن رغبتي في القيام بنزهة في الأرياف، عيّن الباشا حراسة لمرافقتي؛ ولكن على الرغم من هذه الحماية، وبينما كنت أنا والملازم كيليت نتأمل حصانًا لمغربي كان يمر بجانبنا، استدار فجأة وحاول أن يطرحنا أرضًا. على الفور، ألقى الجنود به من على صهوة حصانه وعاقبوه بشدة؛ لكن هذه الحادثة تثبت مدى خطورة مكوث أوروبي وسط هذا الشعب البربري."

النشاط التجاري في العرائش محدود. يتم تصدير الفلين[123] واللحاء الدباغي والفول والصوف والجلود[124] والعلقات التي تعتبر أفضل من تلك الموجودة في تطوان[125]. عندما لا يكون التصدير محظوراً، يتم شحن كميات قليلة من القمح. أما المنتجات الأوروبية الأكثر ملاءمة للاستهلاك المحلي فهي الشاش والقطن والأقمشة الخفيفة (الخضراء والزرقاء والحمراء). على الساحل، يتم صيد كمية كبيرة من الأسماك من شهر مارس إلى شهر يوليو. يتم تمليحها ثم بيعها في موانئ البرتغال وإسبانيا لتجار يقومون بشحنها بكميات كبيرة. في حالة هبوب رياح غربية قوية، يمكن لقوارب الصيد المسيحية أن تأتي للاحتماء في النهر.

تحيط بمدينة العرائش بساتين رائعة والعديد من أشجار النخيل والزيتون والبرتقال والرمان وغيرها من الأشجار ذات الأوراق الخضراء، المزروعة بشكل غير منتظم. يشكل تفرع وادي اللوكوس، على بعد حوالي ثماني كيلومترات فوق المدينة، مستنقعًا واسعًا، تغذي مراعيه الغنية عددًا كبيرًا من الماشية. يقول أحد المسافرين المعاصرين: "لولا الاستبداد البغيض الذي يثقل كاهلها، لكانت هذه البلاد من أسعد البلدان على وجه الأرض".

123 يأتي هذا الفلين من غابة الساحل، الواقعة على مسافة ما إلى الشمال الشرقي من المدينة.

124 توفر مدينة العرائش سنوياً 2500 قنطار من الصوف (125000 كيلوغرام) و10000 جلد ماعز.

125 يصطاد هذه العلق من بحيرة كبيرة تقع جنوب بلدة المعمورة القديمة. وإليكم كيفية صيده. العملية بسيطة للغاية. "يدخل الصياد عارياً إلى الماء ويبقى صابراً حتى ينجذب إليه العلق، الذي تغريه فريسة غير متوقعة، فيتدفق بالآلاف على ساقيه وجسده كله. وبمجرد أن يشعر بالاحتضان والعض بشكل مناسب، يخرج فجأة من البحيرة، حاملاً معه جلاديه الذين يضعهم في أكياس، حيث يتم نقلهم إلى العرائش. — rey، Souvenirs d'un voyage au Maroc، ص. 121.

المحتويات

Table des matières